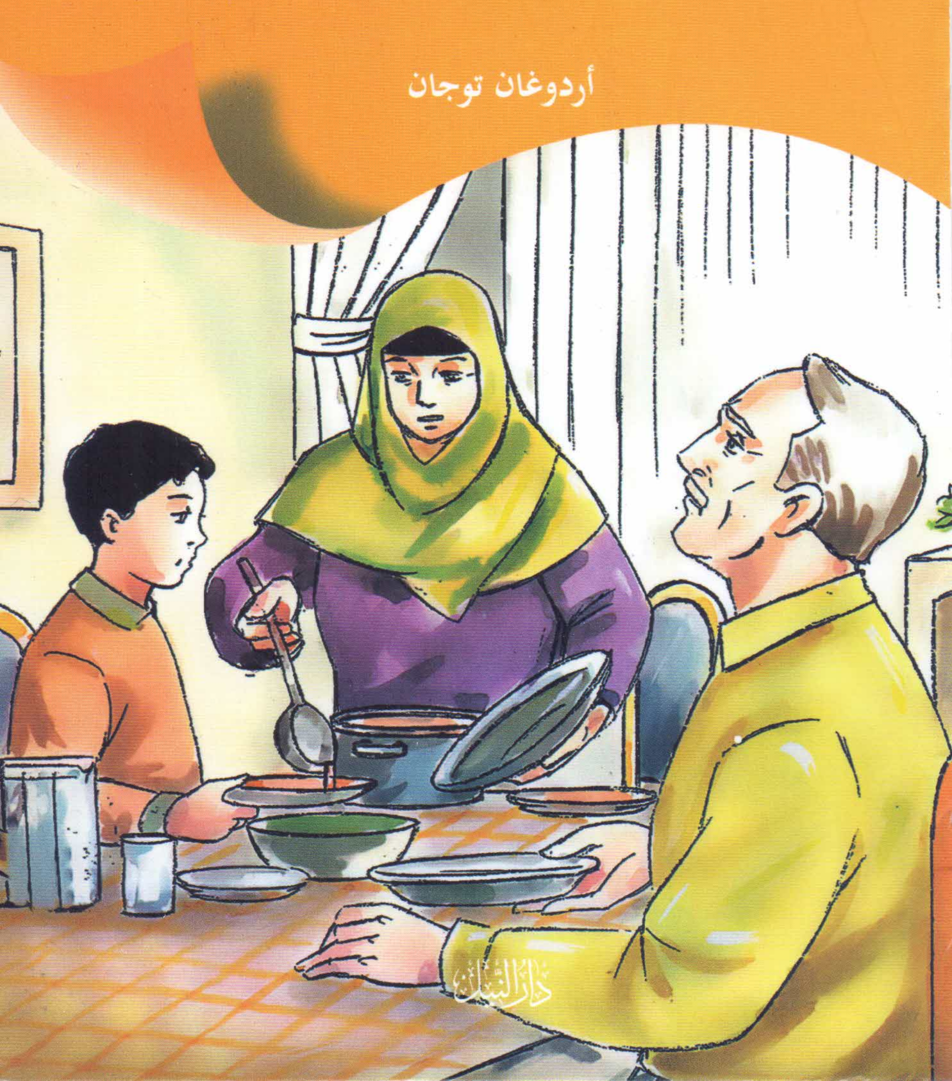
قصص مكارم الأخلاق

موعد الإفطار

أردوغان توجان



قصص مكارم الأخلاق

موعد الإفطار

أفطرنا في كآبة، وحزنت زوجتي سميحة لما حكيت لها ما جرى بيني وبين والد كنعان، وبينما كنتُ في طريقي إلى صلاة التراويح أخذتْ زوجتي الأحذية التي تم تلميعها وإصلاحها، ونظرنا إلى بعضنا، كانت الأحذية قد تم تلميعها بعناية فائقة، لقد قام كنعان بعمل جيد.

ISBN: 978-975-315-629-5





موعد الإفطار


بسم الله الرحمن الرحيم

موعد الإفطار

تأليف

أردوغان توجان

ترجمة

ياسمين هادي مصطفى

موعد الإفطار

قصص مكارم الأخلاق -٦

الطبعة الأولى: 1434 هـ - 2013 م

تحرير
يوكسل جلبنار
مراجعة
خالد جمال عبد الناصر
تصحيح
د.عبد الجواد محمد الحردان
المخرج الفني
أنكين جيفجي
غلاف وتصميم
ياووز يلماز - أحمد شحاتة
رقم الإيداع ISBN:978-975-315-629-5
رقم النشر
505
IŞIK YAYINLARI
Bulgurlu Mah. Bağcılar Cad. No:1
Üsküdar - İstanbul / Türkiye 34696
Tel: +90 216 522 11 44 Faks: +90 216 650 94 44

دار النيل للطباعة والنشر
الإدارة: 22 ج- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي
– خلف سيتي بنك- التجمع الخامس- القاهرة الجديدة – مصر
5-Tel & Fax: 002 02 26134402
Mobile: 0020 1000780841
E-mail: daralnile@daralnile.com
مركز التوزيع: ٧ ش البرامكة - الحي السابع - مدينة نصر - القاهرة - مصر

فهرس





مشروباتٌ غازيَّةٌ باردةٌ

كان الجوُّ حارًّا جدًّا بالداخل، ولا هواء يدخل من النافذة المفتوحة على مصراعيها، وكنا نَتَنَفَّسُ بصعوبة في مكان عَمَلِنَا، لأن سقفه منخفض.

ولم نَعُدِ قادرين على تحَمُّلِ الضَّوْضاء، واختلاط رائحةِ الورنيش والصبغة، فغَمَسْتُ الفرشاة في الوعاء على مَضَضٍ، ومَرَّرْتُها على سطح الكرسي، ثم أخذتُ استراحةً من العمل، وأخرجْتُ منديلًا من جيبي، ثم مَسَحْتُ عَرَقي.

كان العمال أيضًا مُتْعَبِين؛ فحرُّ الظهيرة يُرْهِق الإنسان؛ قلت لنفسي:

- لو أن هناك مشروبًا باردًا، لشربناه.

وفتحتُ الصُّنْبُورَ الموجودَ أَسْفَلَ كرمة العنب، وانتظرت قليلًا حتى يَبْرُدَ الماء، ولكنه لم يبرد.

أَوْصَلْتُ الماءَ الذي أخذتُه بكَفَّيَّ إلى شَفَتَيَّ، وكان فاتِرًا، وكلما شربْتُ ازداد عَطَشي، فتوقَّفتُ عن الشُّرْبِ، ثم غسلت وجهي بالمياه.

خرجَ حَسَن رئيس العمال أيضًا، ومسح وجهه المحترق بالحرارة، وأزال عَرَقَه، ثم نظر إلى السماء الخالِيَةِ من أيَّةِ سحابة قد تظَلِّل سماء المدينة، وقال:

- الجو حار جدًّا حتى إنه يصعب على الإنسان أن يعمل في الداخل.

مال أبي أيضًا على الصنبور، ونَثَرَ المياه على وجهه، وقال:

- أعرف ذلك، ولكن علينا أن نُنْهِيَ العملَ قبل نهاية الأسبوع.

ضحك حسن رئيس العمال قائلًا:

- لنُواصِل عَمَلَنا في المساء؛ فسيصبح الجو مُنْعِشًا، وسيزداد الإنتاج فيه.

وبينما كنا نتحدث خلال استراحتنا، مَرَّ الصَبِيُّ بائع المشروبات من الشارع المُقابِل، وكان يحمل طبقًا فيه زجاجات مياه غازية باردة، فَتَمَنَّيْتُ أن أشرب منها، وانْحَنَيْتُ، وشربتُ قليلًا من المياه الفاترة.

وبينما كان أبي وحسن رئيس العمال عائدَين إلى المَشْغَل، نادَيْتُهم قائلًا:

- لَيْتَنا أَصْلَحْنا الثلاجة يا أبي؛ فنحن نُعاني من العطش، وحينها نستطيع أن نشرب مياهًا باردة؛ فارتسم على وجههِ الأَسْمَرَ حزنٌ شديدٌ، ومسح عَرَقَه المتجمِّعَ على جبهته بمنديل، وقال:

- عندما نُسَلِّمُ غرفة النوم سأشتري لكم ثلاجة جديدة.

ونظرت إليهِ فوجدته بائسًا تحت شمس الظهيرة، ولم يستطع أن يُكمل كلامه، فندمت على كلامي.

أحْسَسْتُ بحرارةِ أشعةِ الشمس المُتَسَرِّبَة من بين أوراق كرمة العنب الذابلة المتدلية إلى الأسفل، ثم مَرَّتْ سيارةُ أُجْرَةٍ من الشارع الخالي من الناس؛ حيث قَلَّ عدد الذَّاهبين والعائدين، فلم يخرج أحد للتسوق، وكان البُخار يتصاعد من بين الأبنية الخُراسانية إلى السماء.

وبينما كنْتُ شارِدَ الذِّهْن في كل هذا، قال أبي:

- هَلَّا أَتَيْتَ يا حسين؟

فركضْتُ بسرعة إليه، فأعطاني نقودًا أخْرَجَها من جيبه؛ وبينما كنتُ أمسحُ يَدَيّ المُبْتَلَّتين، فكرتُ قائلًا:

- تُرى هل سأشتري بهذه النقود مشروبًا غازيًّا؟



ولكن قال أبي:

- اِشْتَرِ ما في هذه القائمة من بائع الخرداوات.

أخـذت النقـود الورقيـة، وكان حَلْقـي جافًّا منـذ وقت طويل، ثم خَطَرَ لي أن أطلُب منه نقودًا لشـراء مشـروب غازي، ولكن لم أستطع قَوْلَ أيِّ شيء، وقلت:

- سأذهب فورًا.

وعَبَرْتُ إلى الجهة المقابلة، ثم ناداني أبي قائلًا:

- نحن في الجامع، تعالَ إلينا.

وأَشَرْتُ بيدي قائلًا:

- حسنًا.

وجاءَتْ من الجهة المقابلة سيدة عجوز، كانت تسير بصعوبة وهي تحمل بيدها حقيبةَ السـوق، وكان الحرفيون واقفين في ظِلِّ دكاكينهم ينتظرون الزَّبائِنَ بهدوء.

وبينما أنا ذاهب باتجاه إشارات المرور، مَرَّ بالطريق الجانبيِّ الصبيُّ بائع المشروبات، فصاح قائلًا:

- لدينا لَبَن رائِب، ومياه غازية مثلجة.

فأخرجت من جيبي النقود دونَ أن أشعُرَ، وسألت نفسي:

- تُـرى، هل أشـتري زجاجـةَ مياهٍ غازية؟ لقد عَطِشْـتُ كثيرًا،

تُـرى، هـل سيُلاحظ أبـي إذا أخذت بعضًـا من هذه النقود لشـراء مشروب غازي؟

وكان بائع المشـروبات يذهـب ويعـود مـن جانبـي، فظللـت أنظر إليه وأنا حائر.

وعندمـا دخلْـتُ إلـى دكانِ بائـعِ الخـرداوات الـذي كان على بُعْـدِ شـارعَين، وجـدت زبونًـا واحـدًا، فانتظـرت حتـى وَدَّعَ بائـعُ الخرداواتِ العجوزُ الزبونَ؛ ولما التفت رآني، وقال:

- الجوُّ حارّ جدًّا اليوم؛ حتى إن الإنسان يتمنى أن يعيش في الثلاجة.

ثم انتقل إلى وراء الطاولة، وأكْمَلَ حديثَه:

- تَفَضَّلْ يا ولدي، ماذا تريد؟

قرأْتُ الطلبات من الورقة التي بيدي، فضَيَّقَ عينيه الهَرِمَتَيْن، وأَنْصَتَ إليَّ، ثم قال:

- قُلْ لي طلبًا بعْدَ طلبٍ يا ولدي؛ فأنا سريعُ النسيانِ، وهكذا الشيخوخة يا ولدي.

وذهبَ بِبُطْءٍ إلى الرَّفِّ وهو يعْرُجُ ثم عادَ إليَّ، وقال:

- ماذا طلبْتَ؟ هل تريد ورنيشًا؟

وهـبّ شـيء من نسـيم البحـر ليطرد الحـر الخانـِق بالداخل، فكأنمـا أَنْعَـشَ وجوهَنـا، فمسـحت وجهـي المُنْتَعِـشَ، وأشَـرْتُ برأسي قائلًا:

- نعم.

وقال البائع وهو يصعد السُّلَّم:

- ها هو النسيم، ربما ننْتَعِشُ قليلًا.

صعد وأحضر العلبة بصعوبة، وأنا أقرأ عليه بيانات الطلب.

وكان آخرُ شيء سآخُذُه موجودًا بالرَّفِ الأعلى.

فأشار بيديه، وقال:

- أنا لا أستطيع الصعود إلى الأعلى. هل يمكنك مساعدتي؟

- نعم، يمكنني مساعدتك .

ثـم قـام بحِسـاب مـا اشـتريتُه بذِهْنِه، ووضـع المُشْـتَرَيات في حقيبة بلاسْـتِيكِيَّة، واختفى النسيم المُنْعِش، وحَلَّتْ مَحَلَّه حرارةٌ خانِقَـةٌ بالداخـل مـرةً أُخرى، ثم عَدَّ البائعُ النقـودَ التي أعطيتُها له، وفتح الخزانة، ووضع نقوده في مكانها، ثم أخذْتُ الحقيبة بيدي، فقال لي:

- مع السلامة يا ولدي، وبلغ سلامي إلى والدك.

وأعطاني المُتَبَقِّيَ من النقود.

وضعْتُ حقائبي التي بيديّ على الأرض، ونظرْتُ في النقود التي بقبضة يدي مليًّا.

وعندما رآني وأنا غارق في التفكير، سألني قائلًا:

- ماذا بك؟ هل نسيتَ شيئًا؟

تنفس نفسًا عميقًا، ولم أعد قادرًا على التفكير بسبب الحرارة، وقلت:

- لا، ولكن احترق رأسي من شِدَّةِ الحَرِّ.

ومسح البائع رقبته بالمنديل الذي بيديه، وقال:

- ماذا أقول؟ رغْم ذلك فهو مَوْسِمٌ جميل، وتعالَ مرة أخرى إذا أرَدْتَ شيئًا.

عندما خرجْتُ من الدكان، كان قد اقتربَ وقتُ الظهيرة، ومَشَيْتُ في الشارع محاولًا أن أحْتَمِيَ بالظلال القصيرة، وكانت يَدُ الحقيبة قد حزَّتْ يدِي حتى احْمَرَّت وجَفَّ ريقي، فوقفْتُ مرة على الرصيف.

انْحَنَيْتُ على الأرض، وهممتُ بحمل الحقيبة، فسمعت من الرصيف المقابل صوتَ الصبيِّ بائع المشروبات ينادي مرةً أُخْرى:

- لبن رائب، مياه غازية مُثَلَّجَة.

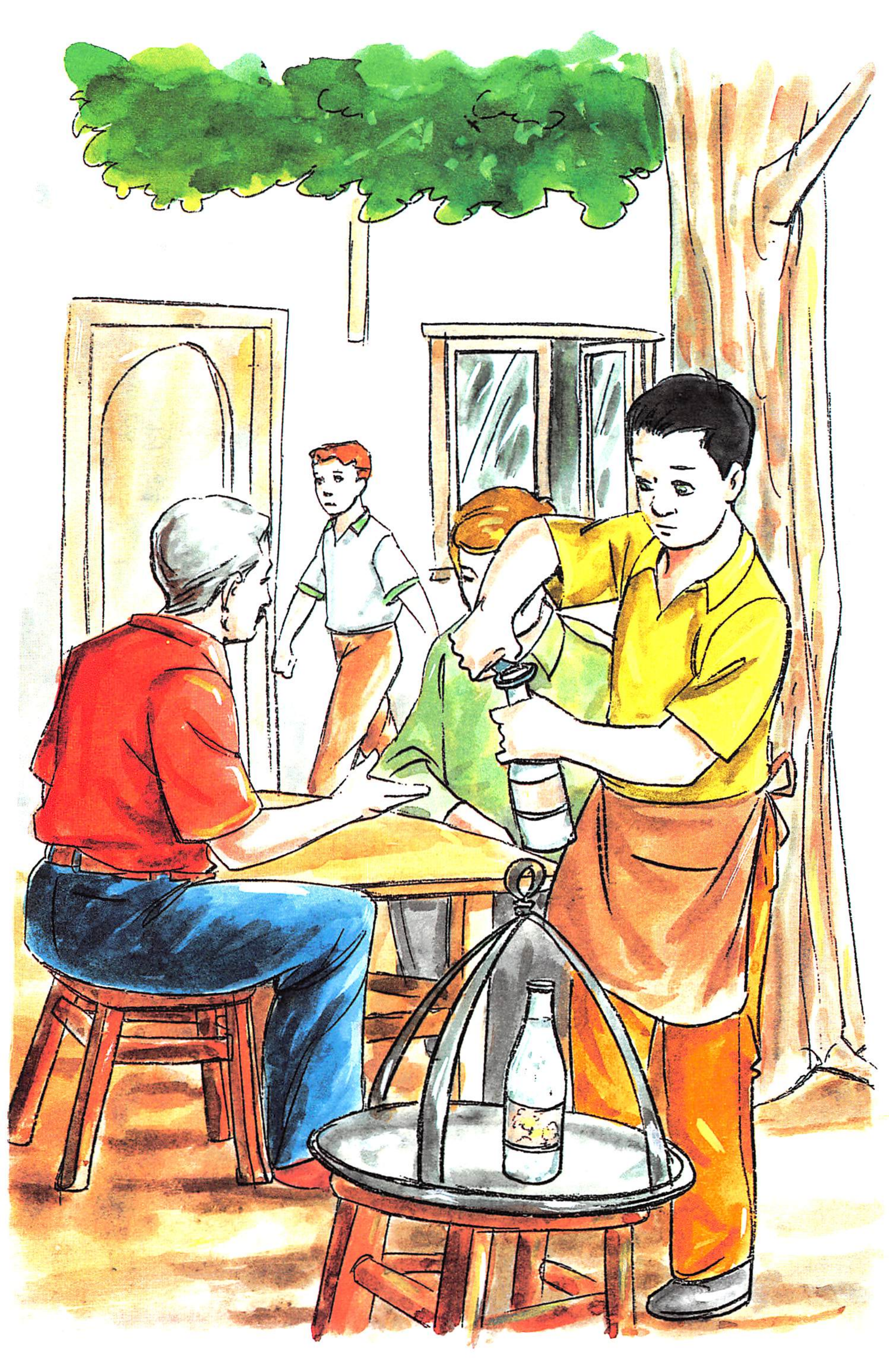
وبينما كنت سأَعْبُرُ إلى الجهةِ المقابلةِ للطريق، تذكرْتُ النقود التي أعطاني إيَّاها بائعُ الخرداوات.

وضعْتُ الحقيبة البلاستيكية على الأرض بسرعة، وحاولْتُ إخراجَ النقود بصُعوبَة من جيبي بيدي التي يتساقط منها العَرَقُ، ثم قُمْتُ بِعَدِّها؛ فوجدْتُ زيادةً في النقود التي أعطاني إيَّاها، ثم حَسَبْتُ المال الذي أخذْتُه مرة أُخرى، فتأكَّدْتُ أن فيه زيادة.

وبينما كنتُ أفكر فيما سأفعله، جَذَبَ انتباهي دكانُ بائعِ المُثَلَّجات، وقد اجتمع الأطفال حوله، بعضهم يشتري مثلجات، وبعضهم يشتري مياهًا غازية.

التَفَتُّ إلى جِهَةِ بائع الخرداوات، وإلى جهة بائع المثلجات، ثم انْحَنَيْتُ ببطء، وأخذت الحقائب، وعَبَرْتُ للجهة المقابلة مُفَكِّرًا في المشروب الغازي البارد الذي سيُبَلِّل شَفَتَيَّ بعد قليل، ومفكرًا أيضًا:

- مَن سيَدْري بالنقود الزائدة؟، لقد أعطاني أبي نقودًا بِقَدْرِ الأدوات التي سأشتريها، ما الحلّ؟ لَيْتَ البائعَ لم يخطئ في الحساب.



نظـرتُ إلى الأطفال الذين يشـربون تلـك المياه الغازية، فهي تنعش الإنسـان في الحرّ، ولكن لـم يسـمح لي ضميري أن أشتري المياه الغازيـة، فرجعـت إلى دكان بائع الخـرداوات، ونظرْتُ إلى الداخـل باحثًـا عن الرجل المُسِـنّ، ثم سـمعْتُ صوتَ سـعالٍ من وراء الطاولـة، ورأيـت بائِع الخرداوات العجوز يلْبَس نَظَّارَتَه التي سقطت منه، وعندما عَرَفَني قال:

- خيرًا يا ولدي، هل نسيْتَ شيئًا ما؟

فابتلعت ريقي الجاف، وقلتُ لبائع الخرداوات:

- نعم هناك شيء قد نسيتُه.

وضعْـتُ الحقائـب فـى زاويـةٍ مـن زَوايـا الـدكان، ثـم أعطيته النقود، وقلتُ:

- لقد أعطيتني زيادة.

وأعطيتـه القائمـة التي كانـت بيدي أيضًا، وبينما كان ينظر في القائمة بدِقَّة، خَطَوْتُ خطوة خارج الباب.

بينمـا كنـت أَسِيرُ بصعوبـة، أتـى الصبـي بائـع المشـروبات، فمَـرَرْتُ بجانبـه دونَ أن أنظـر إلـى الطَبَق الـذي يحمله، وخطوت خطوة أخرى، فقال بائع الخرداوات:

- من فضلك، هل يمكنك أن تأتي يا صغيري؟

فعُدْتُ، وكان البائع يقول شيئًا ما للصبي بائع المشروبات، فسُرِرْتُ، ونظرتُ إليهما، فأشار بيده قائلًا:

- تَعَالَ.

وبينما كنت عائدًا، أخْرَجَ بائع الخرداوات من الداخل مَقْعَدَيْنِ، وقال:

- هيا اجلس هنا.

وأعطاني أَحَدَ المَقعدَين، وحينما جلس قال للصبي:

- افتح لنا من هذه المياه الغازية الباردة لنَنْتَعِشَ.

تَدَفَّقَتْ مياهٌ باردة من شَفَتَيَّ إلى جَسدي بشكلٍ لا يُمْكِنُ وَصْفُه، ثم ابتلعْتُ ريقي.

سمِعَني البائعُ العجوزُ وأنا أقول:

- الحمد لله.

كان يشاهدني والزجاجة بيده، وقد امتلأتْ عيناه بالفرحة، وكأنه يستمتع كثيرًا بشُرْبي، وقال:

- اشربْ، اشربْ... فأنت تسْتَحِقُّ ذلك.

وبينما كانت المياه الغازية الباردة تروي حَلْقي الجَافَّ، أَذَّنَ المُؤَذِّنُ لصلاة الظهر، فنهض بائع الخرداوات من مكانه ببطء، وقال:

- إنني ذاهب إلى الجامع، اشربْ أنت على مهلِك.

قلت:

- وأنا سأذهب أيضًا.

وبينما كنت أَمُرُّ من أمامِ الأبنيةِ قصيرةِ الظِّلالِ، وأنا ذاهبٌ إلى الجامع، انْشَرَحَ صدري، وكيف لا ينْشَرِحُ وقد شربتُ زجاجة مياه غازية مثلجة؟، ولما دَخَلْتُ ساحة الجامع، لم أَشْعُرْ بِثِقْلِ الأحمالِ التي بيدي أبدًا.

رحلةُ الصَّيْدِ

أذَّنَ لصلاة العِشَاءِ، وبينما الناس مشغولون بشيِّ الكَسْتَنَاءَ في منازلهم، انطلق عدنان بسيارته.

اعتدل الجو، وكَثُرَ الصَّيْدُ، وانتهى عدنان من اسْتِعْداداتِهِ، حتى إنَّهُ أَحْضَرَ بُنْدُقِيَّةً لصديقِهِ.

هَدَّأَ عدنان من سُرْعَةِ سيارتِهِ، ورَكَنَها في مكانٍ مُنَاسِبٍ، وعندما فتحَ بابَ السيارةِ وَاجَهَتْهُ رياحٌ باردةٌ، ثم رَنَّ الجرسَ أكثرَ من مرةٍ، وصَعِدَ إلى الأعلى مُتَشَوِّقًا، فتحَتْ والدةُ سادات البابَ، وطَلَبَتْ منه الدخولَ إلى المنزلِ، ولكنه قال:

- لا، فَيَجِبُ أن نَخْرُجَ بسرعةٍ يا خالة فاطمة.

رَدَّتِ الخالةُ فاطمة بهدوءٍ قائلةً:

- سادات يصلي، انتظر.

ظَلُّوا يتحدَّثون عند الباب حتى ظَهَرَ سادات، وكانَ يسْعُلُ، فخافت عليه أمُّه؛ لأنها لم تكن تريدُ أن يذهبَ للصيدِ.

وعندما وَصَلَ سادات إلى البابِ قالت:

- إنكَ لَمْ تتحسَّنْ بَعْدُ يا وَلَدِي!

- لا تقلقي يا أمي، فأنا بخيرٍ؛ ابْدَئي بتنقيةِ الأَرُزِّ الآنَ؛ لأننا سنعودُ غدًا ببَطٍّ كثير.

- إنني لا أفهمُ ما الذي تستفيدانِهِ مِنْ قَتْلِ تلكَ الحيواناتِ المِسكينةِ.

فقال عدنان:

- إنها المغامرةُ يا خالة... المغامرة!

قبَّل سادات والدتَه من رأسها، وقالَ:

- سأكونُ حَذِرًا، انظري لقد أَخَذْتُ مِعْطَفي أيضًا؛ ولن يُصيبَني بَرْدٌ إنْ شاءَ اللّٰه.

كان ابنها مريضًا فلم ترضَ بخروجه، ولما أصرّ عدنان أذنت له.

فقال عدنان:

- ليلة سعيدة يا خالة.

و بينما كان الصديقان يَنْزِلانِ إلى الأسفلِ، دَعَتْ لهُما الأمُّ العجوزُ كثيرًا.

وبعدَ قليلٍ ابتعدوا عن أضواءِ المدينةِ، وتَقَدَّمُوا بسرعةٍ إلى الطريقِ الذي قَسَمَ السَّهْلَ إلى قِسْمَينِ.

بينما كان البَرْقُ يَلْمَعُ فوقَ البحرِ من بعيدٍ، والسُّحُبُ قد تَجَمَّعَتْ على قِمَمِ الجبالِ، وضَوْءُ القمرِ قدْ حَلَّ من جديدٍ، شغَّل عدنان مِدفَأَةَ سيارتِهِ قليلًا، ونظر إلى صديقه الذي كان جالسًا على المَقْعَدِ الجانِبِيّ، فوجده ناعِسًا، ويَسْعُلُ من وقتٍ لِآخر.

ضَغَطَ عدنان على دوَّاسة البنزين؛ ولما اجْتَازَا التلّ قبيل الصباح وَجَدا أمامَهما لوحةً فَنِّيَةً رائعةً، كانتِ البُحيرةُ هادئة، وتَمْتَدُّ أمامَها مساحةٌ منَ البوص، وكانت أشجارُ الصَّفْصَافِ المُصْطَفَّةُ على امتِدَادِ ضِفَّةِ البُحَيْرَةِ تهتز فوق المياهِ معَ رِيَاحِ الصَّبَاحِ، ومياهُ البحيرةِ الباردةِ تَمُوجُ قليلًا، والمراكِبُ المَرْبُوطَةُ بالضِفَّةِ تَتَأَرْجَحُ مع الموج.

وعندما نَزَلَ عدنان من السيارةِ، واجَهَتْهُ رياحٌ شديدةٌ وباردةٌ، فأغلقَ سَحَّابَ معطفِه، ثم استيقظَ سادات على الهواءِ البارِدِ.

وبينما كانا يَتَحَدَّثانِ، مَرَّ أمامَهُما سِرْبٌ من البَطِّ فوقَ مياهِ البحيرةِ العَذْبَةِ، فَتَحَمَّسَ عدنان وقال:

- هل رأيتَ سربَ البط؟ الصيدُ اليومَ كثير إن شاء الله.



وضعَ سادات يده على وجهه فَوَجَدَهُ مُبَلَّلًا بالعَرَقِ قليلًا، ولكن سُعَالَهُ قد هدأ بعض الشيء.

مشَى عدنان باتِّجاهِ جانبِ الطريقِ، ونَظَرَ إلى الأسفلِ، ثم عادَ إلى السيارةِ، وقال لصديقه مسرورًا:

- هُنَاكَ مَطْعَمٌ قريبٌ، فلنتناول الفطور، ثم نَتَّجِهُ إلى البحيرةِ؛ لِنَخْتَبِئَ بينَ أعْوَادِ البُوصِ.

وعندما وَصَلَا، كانتِ الشمسُ قدِ ارتفعتْ في السماء قليلًا، وكان هناك أشخاصٌ جاؤوا للصيدِ أيضًا.

وبعد أنِ اسْتَرَاحَا في المطعمِ ساعتينِ، أَنْزَلَا القاربَ إلى البحيرةِ، وَوَضَعَا البُنْدُقِيَّتَيْنِ وحَقِيْبَةَ الصيدِ بالقاربِ.

وفي هذه اللحظةِ سُمِعَ صوتُ مُحَرِّكِ مَرْكَبٍ بين البوص، فتبين أنه ملك لشخصين قدِما للصيد في وقتٍ مبكر، واقْتَرَبَا بالمركبِ من الضِّفَّةِ ونَزَلَا، وكانت حقائبُ صيدِهِما ممتلئةٌ.

عندما رأى عدنان الطيورَ التي قاما باصطيادِها، تمنَّى أن يصطادَ مِثْلَهُما، وأَخْرَجَ من فوقِ السيارةِ مِجْدَافَيْنِ، وثَبَّتَهُمَا بالقاربِ، ثم عادَ إلى سادات الذي كان ينتظرُه بالخَلْفِ وسأَلَه قائلًا:

- هيا اركب، سنذهبُ للصيدِ، هل تريدُ أن تقومَ بالتَّجْدِيْفِ؟

ثَبَّتَ سادات قُبَّعَتَهُ على رأسِه جيدًا، وبَدَأَ بالتجديفِ، وَوَاصَلا التَّجَوُّلَ في البحيرةِ حتى حانَ وقتُ الظُّهْرِ.

بَـرَدَ الهـواءُ قليـلًا، وَبَدَأَ سـادات بالسُّعَالِ مُجـدَّدًا، فَقَـرَّرَا أن يَعُودَا.

لَمْ يَكُنْ عدنان يريدُ العودةَ، ولكنْ عندما ازْدَادَ تَعَبُ صديقِه، وَجَّهَ القاربَ باتجاهِ المطعمِ، وَسَحَبَهُ باتجاهِ الضِّفَّةِ، ثم دخلا إلى المطعم.

كانَ الجوُّ حارًّا بالداخلِ، وقامَ العَمُّ سليمان صاحبُ المطعمِ بإحضارِ حَطَبٍ سَمِيْكٍ، وقَذَفَهُ في المِدْفَأةِ، ثم اقتربَ من الطاولةِ التي جلسَ عليها الصديقانِ، وقال:

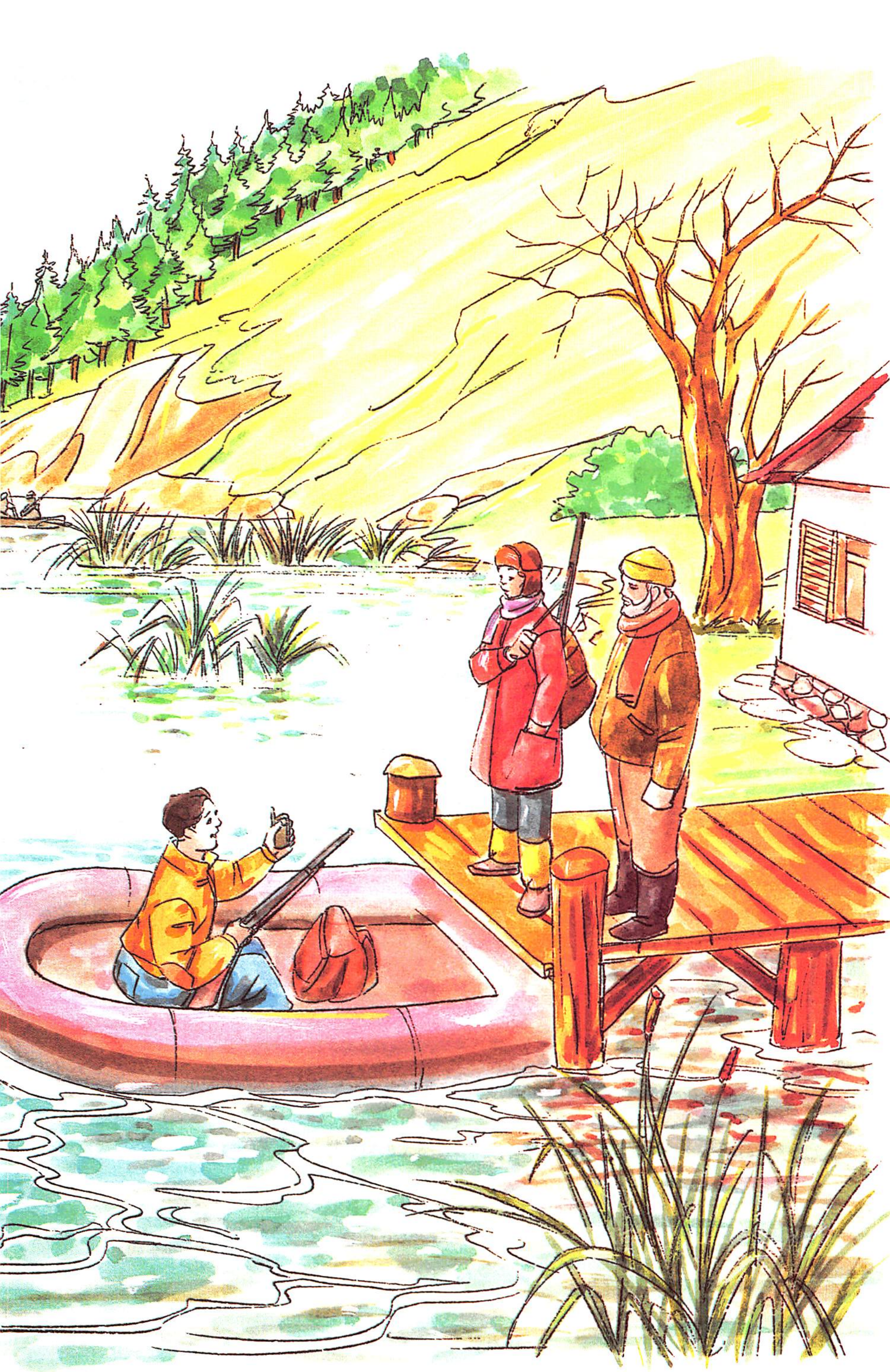
- شَـفَاكَ اللهُ يا بُنَيَّ، سَـأُعِدُّ لكَ أعْشـابَ الزَّيْزَفُونِ، اشـرب فهو مفيد، وسيخفف من رعشتك.

قال عدنان لسادات:

- ابْقَ أنتَ هُنا وأنا سأعودُ للبحيرةِ مَرَّةً أُخْرَى.

- لا تذهـبْ يـا صديقي؛ فالبطتـانِ اللتانِ قُمْنَـا باصطيادِهِما كافيتانِ لنا.

- كافيتـانِ؟ قطعنـا كُلَّ هذا الطريقِ، وَعانينا كلَّ هذه المُعاناةِ من أجلِ بطَّتينِ؟ مستحيلٌ! ما زال الوقتُ مبكرًا.



- حَسَنًا، افعلْ ما تريدُ، سأنتظرُكَ هنا، هل هاتفُكَ المحمولُ معكَ؟

فتح عدنان مِعْطَفَهُ وأخرجَ له الهاتفَ، وقال:

- هاتفي مفتوحٌ، إذا اشْتَدَّ مرضُكَ اتَّصِلْ بي.

أحضرَ العَمُّ سليمان الشايَ الذي جَهَّزَهُ بيدِهِ، وسَحَبَ كُرسيًّا، وجلسَ بجانبِ سادات، وقال:

- هكذا هو الصيدُ! إذا اصطدتَ مرةً لن تستطيعَ أن تتركَه؛ إن هوايةَ الصيدِ مُهْلِكَةٌ.

- إنني لا أَهْوَاهَا كثيرًا، لقد جِئْتُ إلى هنا بسبب إلحاح صديقي عَلَيَّ.

- حسنًا فَعَلْتَ، دعنا نُكْمِل حديثَنا؛ فالمكانُ هنا جميلٌ جدًّا، وسنتناولُ غداءَنا بعدَ قليلٍ.

قامَ عدنان بالتَّجْديفِ بكلِّ قُوَّتِهِ، فَمَخَرَ القاربُ المياهَ وتَقَدَّمَ، ثم اخْتَبَأَ بينَ أعوادِ البوصِ.

وبينما كان عدنان يُجَهِّزُ بندقيتَه، أُطْلِقَتْ رصاصتان من الناحيةِ الأُخْرَى من البحيرةِ، فطارَ سربٌ من البطِّ، وكانت تُسْمَعُ أصواتُ أجنحةِ البطِّ وهي تُرَفْرِفُ وَسَطَ البحيرةِ، واتَّجه السرب باتِّجاهِ عدنان، فصَوَّبَ بندقيتَه باتِّجاهِ البطِّ و انتظرَ.

وفي اللَّحْظَةِ التي كان سيُطْلِقُ الرصاصَ فيها، أَطْلَقَ صَيَّادٌ آخَرُ رصاصةً من بندقيتِه، فأصدرت صوتًا عاليًا، فتَغَيَّرَ مسارُ السِّرْبِ الطائرِ، إلا بطة واحدة بدأت تهبط تدْرِيْجِيًّا، وتُرَفْرِفُ بجناحَيْها بصعوبةٍ، ثم تعبت فاسْتَسْلَمَتْ للمياه الفاترة، وسَقَطَتِ بيد عدنان، فأَخَذَهَا.

ثم قام صيَّادٌ آخرُ بإطلاقِ رصاصةٍ من بندقيتِه، وفي هذا الوقتِ كان ريشُ البطةِ الأخضرُ يتطايَرُ فوقَ البحيرةِ، فقام عدنان بالتجديفِ بسعادةٍ كبيرةٍ، ووَضَعَ البطةَ في القاربِ، ثم اخْتَبَأَ في مكانٍ مناسبٍ.

مَرَّ الوقتُ بسرعةِ البَرْقِ، وخَيَّمَ الظلامُ، وبحُلُوْلِ المساءِ هَبَّتْ رياحٌ باردةٌ باتِّجاهِ البحيرةِ من ناحِيَةِ سُفُوحِ الجبالِ.

نظر عدنان إلى البطِّ الميتِ في القاربِ، وعندما تَذَكَّرَ ما أحرزه الصيادَان في الصباحِ رأى أنَّ ما اصطادَه قليلٌ؛ فقد اصطادَ بطتينِ فقط، فقَرَّرَ أن ينتظرَ رغم أن الرياح عاتية.

وبينما كان يُفَكِّرُ في هذا، رَنَّ هاتفُه المحمولُ؛ فسادات يشْعُرُ بِقَلَقٍ شديدٍ، ويقول له:

- ألن تعودَ؟ لقد حَلَّ الظَّلام!

- سأعودُ خلالَ ساعةٍ.

- يجب ألا نتأخرَ عن مَوْعِدِ الرجوعِ إلى المنزلِ؛ لأننا سنذهبُ إلى العملِ صباحًا.

- حسنًا حسنًا، لن أتأخرَ.

وأغلقَ هاتفَه بغضَبٍ، وظَلَّ منتظرًا بمكان اختبائِه.

سمع صوت مُحَرِّكٍ من بعيدٍ؛ فهؤلاء آخر صيادينِ يعودونَ إلى منازِلِهم؛ ففرح عدنان، وفَرَكَ يَدَيْهِ، وشاهدَ القمرَ المرتفعَ فوقَ البحيرةِ الهادِئَةِ، ولم يُسْمَعْ أيُّ صوتٍ إلا صوتُ الصَّفِيْرِ القويِّ للرياحِ الشماليةِ المتجهةِ باتجاهِ أعْوادِ البُوصِ.

اشتدّ البرد، وتَخَدَّرَتْ قَدَمَا عدنان من كثرةِ الجلوسِ، لكنه لم يَهْتَمَّ لهذا، فبندقيتُه بيده، وأُذُنُهُ تُرَكِّزُ على صوتِ الفَرِيْسَةِ.

ظَهَرَتْ بُقْعَةٌ سوداء فوقَ البحيرةِ، وعندما نَظَرَ بدِقَّةٍ أكثر، أدْرَكَ أنها سِرْبٌ من البط، فاسْتَعَدَّ بِحَذَرٍ، وراح يقلّد صوتَ البط، فغَيَّرَ السِّرْبُ الذي سَمِعَ هذا الصوتَ مسارَهُ، وطارَ باتجاهِ عدنان.

وبعد قليلٍ كان سيَمُرُّ السربُ فوقَهُ، وتُصْبِحُ كلُّ واحدةٍ في السربِ فريسةً جاهزةً، فنَهَضَ من مكانِه، وحاولَ الوقوفَ على رُكْبَتَيْهِ، ولكن السربَ انطلقَ مع الرياحِ التي هبَّتْ بشِدَّةٍ؛ فتعجبَ عدنان لِما حَدَثَ؛ لأن آخرَ فريسةٍ كان سيصطادها قد هربَتْ،

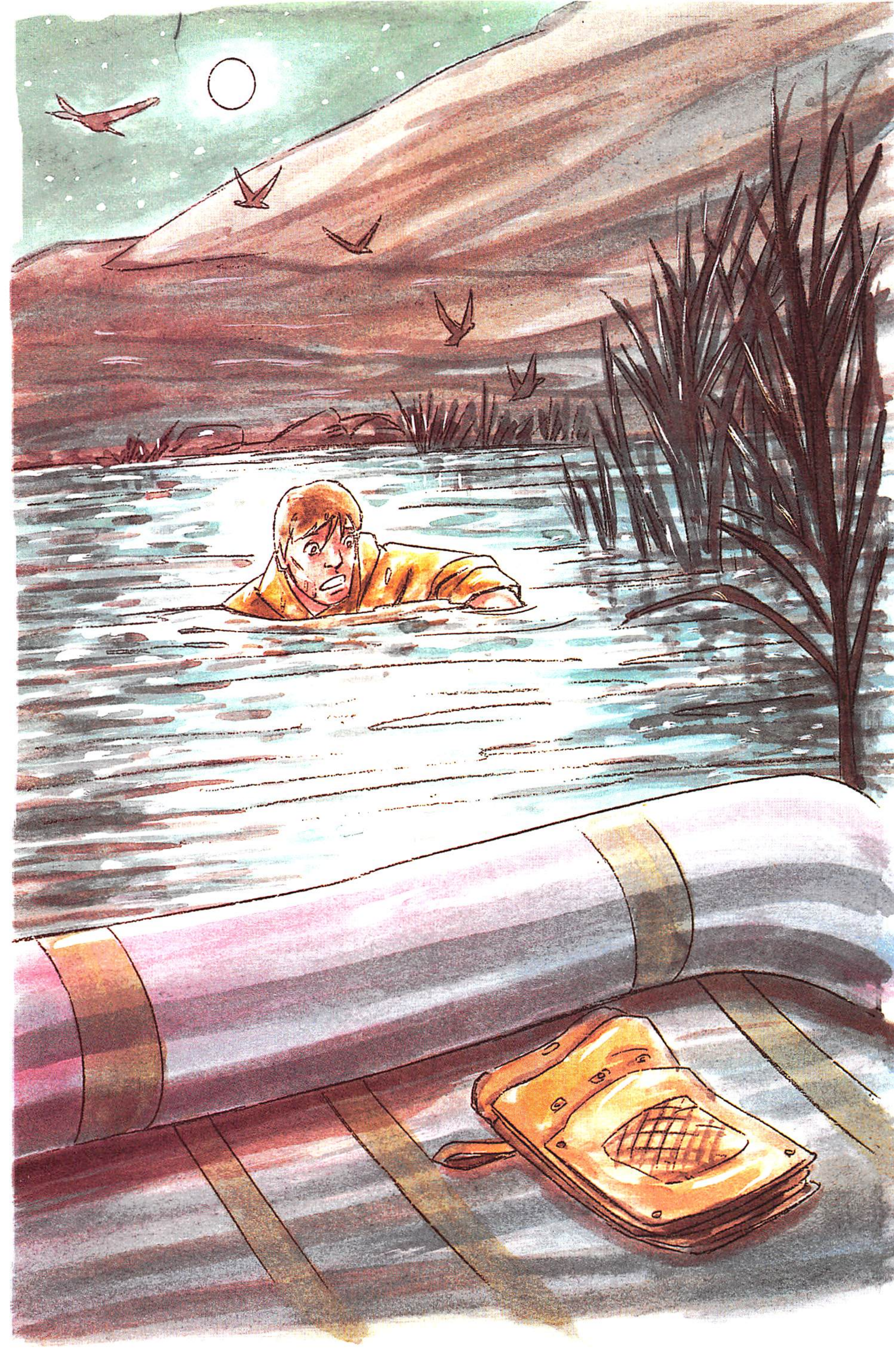
فوَقَـفَ وصَـوَّبَ بندقيتَه، فاخْتَـلَّ تَـوازُنُ القـاربِ المُتَأَرْجِحِ، واهْتَزَّ يمينًا ويسارًا بشَكْلٍ مُضْطرِبٍ.

وبينما كان عدنان يحاولُ استعادةَ توازنِه، مالَ طَرَفُ البندقيةِ التـي كانـت بيدِهِ باتجـاهِ القاربِ، وأطلقَ عدنـان -وهو يحاولُ أن لا تقَـعَ البندقيـةُ فـي المـاء- رصاصـةً، ثم فقـدَ توازُنَه، وسـقطَ في ميـاهِ البحيـرةِ البـاردةِ، وأمـا البندقيـة فاصْطَدَمَـتْ بِطَـرَفِ القاربِ، وغاصَتْ في مياهِ البحيرةِ.

منـذ الصبـاح وعدنان يرتجف من البردِ، ولما سَـقَطَ في الماء ارتعش أكثر من شدة البرد، وخاف خوفًا شديدًا، حاولَ أن يخرجَ إلى سـطحِ الماءِ، لكن ملابِسَـه المبتلةَ أتْعَبَتْهُ، ثُمَّ أخرجَ رأسَـهُ من الماء بِصُعُوبَةٍ.

وجَـدَ القـاربَ علـى بُعْـدِ مِتْرَيْـنِ، وحـاولَ أن يَسْـبَحَ باتِّجـاهِ القـاربِ بـكلِّ قُوتِـهِ، ولكن ملابِسَـه الثقيلـةَ وبُرُودَةَ الميـاهِ أنهكته، تَباطَأَتْ سُرْعَةُ سباحتِه شَيْئًا فَشَيْئًا، ولو سبح أكثر قليلًا لَوَصَلَ إلى القاربِ، ولكنه تَعِبَ كثيرًا، فراح يَغْطِسُ في المياه ويخرجُ منها.

وبينما كانت أنوارُ البَدْرِ تُضِيءُ سَطْحَ البحيرةِ، وصَوْتُ أعوادِ البوصِ كأنه هدهدة الطفل، شَعَرَ عدنان برَغْبَةٍ في النومِ.



تَرَدَّدَ صوتُ البندقيةِ المُدَوِّي من أحدِ أطرافِ البحيرةِ، فنهضَ سادات مُسْرِعًا خائفًا، وخرجَ من المطعمِ، ووَصَلَ إلى البحيرة، ولَحِقَهُ العمُّ سليمان قائلًا:

- خيرًا إن شاءَ اللهُ!

فأخرجَ سادات هاتفَه المحمولَ مُرْتَبِكًا، وراح يبحث فيه عن رقم عدنان في شدّة الظلام، فلما وجدَ رقمَه ضَغَطَ على زِرِّ الاتصالِ، ووضعَ الهاتفَ على أُذُنِهِ؛ ليتحدثَ مع صديقهِ بأسرعِ وقتٍ ممكنٍ، ولكنه لم يَسْتَطِعْ الوصول إليه، فحاوَلَ الاتصالَ أكثرَ من مرةٍ، ولكن بِلا فائدةٍ.

بدأ سادات بالسعالِ، وهو يَدُورُ حولَ رصيفِ الميناءِ الصغيرِ.

سألَه العمُّ سليمان قائلًا:

- ماذا حدثَ يا وَلَدي؟

- لم أسْتَطِع الوُصُوْلَ إليه، وأنا خائفٌ من إصابتِهِ بضَرَرٍ.

نهضَ سادات فَجْأَةً، ونَظَرَ إلى القواربِ المَرْبُوطَةِ، وجاءَ مَرَّةً أُخْرَى إلى جانبِ العمّ سليمان وسأله قائلًا:

- هل يُمْكِنُنِيْ استعارةُ أحدِ تلكَ القواربِ؟

- إنكَ مريضٌ فلن تستطيعَ أن تذهبَ.

- أنا أعرفُ ولكن عَلَيَّ أن أذهبَ.

- حسناً، استعدّ أنت، وأنا سأُجَهِّزُ المركبَ.

وبينما كانَ سادات ذاهبًا باتجاهِ المطعمِ، ناداهُ العمُّ سليمان:

- أَخْبِرْ عامِلَ المطعمِ ليذهب مَعَنا للبحثِ عن عدنان.

كانَ القمرُ يُطِلّ على البحيرةِ كالمِصْبَاحِ.

وشـارك أَحَـدُ الصيادِيـنَ بالمطعمِ فـي عملية البحـث، وتَقَدَّمَ المركبانِ في مياهِ البحيرةِ.

وفـي ذلـك الوقـتِ أخرج عدنان رأسـه بصعوبة وهـو يُصَارِعُ ميـاهَ البحيـرةِ الباردةِ، وحَـرَّكَ قَدَمَيْهِ اللَّتَيْنِ بَدَأَتَـا بالتَّخَدُّرِ، وَجَدَّفَ بيديهِ مرةً أُخْرى، فراح القاربُ يمخُر المياه بينَ أعوادِ البُوصِ.

تنفـس عدنان نفسًـا عميقًا، ثم غَمَرَتْهُ الميـاهُ مَرَّةً أُخرى، لكنه اسْـتَجْمَعَ كُلَّ قُـواه وحَـرَّكَ قَدَمَيْـهِ، وتَقَدَّمَ لكنه وجـد صعوبةً لِثِقَلِ ملابسِه.

ولما أَخْرَجَ رأسَه، وجد نفسه بجانبِ القاربِ، فكان لا بُدّ أن يَمُدَّ ذراعَه، ويُمْسِكَ بِحَبْلِ القاربِ.

تَلَمَّـسَ القـاربَ بـرُؤوسِ أصابعِـه، وأحـسَّ أنَّ دَمَـهُ يَتَجَمَّـدُ، وأصبحَ جَسَـدُه لا يَشْـعُرُ بأَيِّ شـيءٍ، وبعدما اسـتراحَ قليلًا، نَجَحَ في الصعودِ إلى القاربِ، ولكنْ بقِيَتْ قَدَماهُ في الماءِ.

هَبَّتْ رياحُ ليلةٍ قارِسَةٍ بمياهِ البحيرةِ، وعَلِمَ عدنان أنه يُواجِهُ خَطَرًا آخَرَ؛ فقد تَسَرَّبَ الماءُ إلى القاربِ من الثُّقْبِ الذي فتحَتْهُ الطَّلَقَةُ.

رَفَعَ قَدَمَهُ اليُمْنَى وأخرجها من الماءِ، واسْتَراحَ قليلًا، ثم أخرجَ قدمَه اليُسْرى من البحيرة أيضًا، ووضع رأسَه على حقيبةِ الصيدِ وحاولَ أن يستريحَ، لكنَّ القاربَ كانت تَغْمُرُهُ المياهُ شيئًا فشيئًا، وأدارَ رأسَه باتِّجاهِ السماءِ، وقد بدا القمرُ جميلًا في ليلةٍ صافيةٍ.

وفي هذه الأثناء مَرَّ سِرْبٌ من البطِّ من جانبِه، واسْتَقَرَّ بينَ أعوادِ البوصِ.

الليلةُ هادِئَةٌ جِدًّا، وليس هناك أَيُّ شخصٍ بقربه يساعده؛ بَدَأَ عدنان بالتفكيرِ فيما أصابَه طوالَ اليومِ، وكانَ آخرُ مَن تَحَدَّثَ معه صديقَه سادات، فتذكَّرَ هاتفَه، وبَحَثَ في جَيْبِهِ فلم يجِدْهُ؛ فأدرك أنه وقعَ في الماءِ؛ فتنهد وهو يشعر بالعجز، وغضب من نفسِه قائلًا:

- لن أخرج للصيدِ مرةً أُخرى؛ ما هذا الذي نزلَ بي؟، ثم وضَعَ رأسَه على الحَقِيبَةِ، والمياهُ لا تزالُ تَغْمُرُ القاربَ.

ثم بدأ القاربُ يختفي في المياهِ، فضربَ يدَه على القاربِ بحسرةٍ.

كان البدر مرتفعًا فوق البحيرة يضيئ المكان كالنهار، وإذا بمركبٍ في البحيرةِ يغير مسارَه، وأَحَدُ الصيادِين يصيح قائلًا:

- وَجَدْنا القاربَ!

اقتربَ المركبُ بسرعةٍ منَ القاربِ المُتَمَايِلِ بينَ أعوادِ البوصِ، وصاحَ العمُّ سليمان قائلًا:

- إنَّ الماءَ يَتَسَرَّبُ إلى القاربِ، أَسْرِعوا!

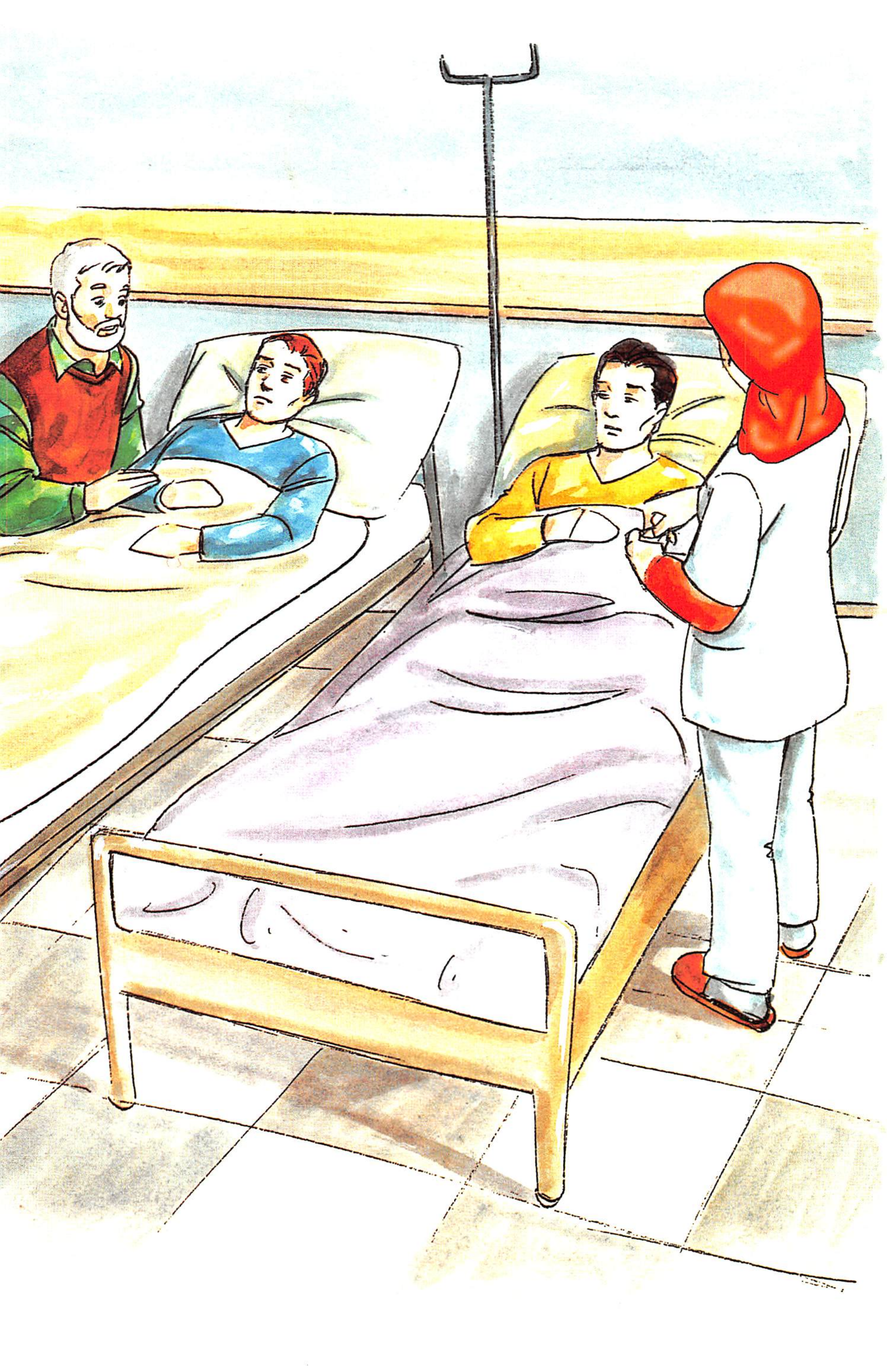
أنقَذوا عدنان من القاربِ؛ فالمياهُ تكاد تغمره، رَبَطوا القاربَ خَلْفَ المركبِ، ثم عادوا إلى المطعمِ، وكان عدنان قد أُغْمِيَ عليهِ، وهكذا انتهت مغامرةُ الصيدِ.

انْعَكَسَتْ أَشِعَّةُ شَمْسِ يومٍ جديدٍ على النافذةِ، ففتح عدنان عينَيْهِ، ورأى الممرضةَ بثوبها الأبيض وهي تخرجُ من البابِ، فحاولَ أن يفْهَمَ أينَ هوَ، وكان صديقه سادات ينام عن يمينه.

وبينما كانَ يُفَكِّرُ مُتَسَائِلًا ما هذا المكان؟ ومن الذي أَتى به؟ دخلَ العمُّ سليمان وقال:

- شفاكَ اللهُ يا بُنَيَّ، لقد نَجَوْتَ بفضل الله.

أرادَ عدنان أن يتحدثَ ولكنه لم يستطعْ؛ فقد حالَت حرارته وصداع رأسه بينه وبين الحديث.



وحاول أن يَبْتَلعَ رِيْقَهُ بصعوبةٍ، وامْتَلأَتْ عَيْناهُ بالدموعِ، فقال العمُّ سليمان:

- لا داعي للخوفِ، فَهُنا مُسْتَشْفَى مَنْطِقَتِنا، ولقد أَخْبَرْنا أهْلَكَ، وستأتي أُمُّكَ عندَ وقتِ الظُّهْرِ.

غادرَ الصديقانِ المستشفى بعدَ أسبوعٍ، وعادا إلى أعمالِهِما؛ وبينما هما في الطريق كان كلٌّ منهما يحدِّث نفسه قائلًا: صدق من قال: القناعة كنز لا يفنى؛ ورحم الله أجدادنا فمن أقوالهم المشهورة: الطمع ضرّ وما نفع.

موعدُ الإفطار

بينما كنت أُغلق الدكان امتلأت السماء بالغيوم، وهبَّتْ رياح خفيفة في الشارع الخالي من المارّة، فالناس جميعًا في منازلهم وقد بدؤوا بتحضير الإفطار منذُ وقتٍ طويل.

انطلقتُ ومعي حقيبة ملأتُها من السوق، وشعرتُ بتعبٍ شديد، أغلقتْ بعضُ الدكاكين، وبقي حِرفيون لم يعودوا إلى منازلهم، كانوا ينتظرون موعد الإفطار.

واستعدت ساحة الخان القديم لقدوم المساء، فبائعو الشراب والفاكهة والخُضروات والحلوى واللُّعب كانوا جاهزين للترفيه والتسوق بعد الإفطار.

وعندما وصلت الجسر شَمَمْتُ رائحة الخبز الصابح، فغيرتُ طريقي ودخلت في الصفّ، إنه يستحقّ عناء الانتظار، فهذه الساعاتُ لا مثيلَ لها إلا في رمضان، وكم كنت أودُّ أن أدعو

بعض أصدقائي ليفطر معي، ولكنني كلَّما خطر لي واحد منهم تذكَّرْتُ أنه مشغول، ماذا أفعل؟ سأفطر أنا وزوجتي وحدَنا اليوم.

كنت أمشي هادئ البال، وفجأةً استوقفني ملمِّع الأحذية قائلًا:

- لَمِّعْ حذاءَك يا سيدي؟

تباطأت خطواتي، ونظرتُ إليه بتمعنٍ، فإذا هو صبيٌّ داكنُ البشرة، هزيلٌ، مطليٌّ بالدهان، نظرت إلى حذائي فإذا به نظيفٌ لا يحتاج إلى تلميع، لكنَّني سارعتُ دون تفكير، ووضعت الحقيبة جانبًا، وقدمي اليمنى على الصندوق، ثم قلت له وهو يلمع حذائي:

- هل لديك متَّسعٌ من الوقت؟

لم يفهمني في البداية، ثم نظر إلى المئذنة قائلًا:

- لم يؤذّن بعد.

وبدأ يعمل بسرعة، كان يَثني سروالي ويجاذبني أطراف الحديث قائلًا:

- لا تقلق يا عم حليم، سألمِّع حذاءك فورًا، إنك جديد على المنطقة أليس كذلك؟

العمُّ حليم:



- نعم، أنا هنا منذ شهر، ما اسمك؟

- كنعان.

بدأ يتحدث بنبرةٍ خاصة، انتهى من التنظيف بالفرشاة، كان منهمكًا في عمله، ولاحظت أنّ ريقه قد جف ولم يعد يقدر على



العمل، فعرفت أنه جائع، فسألته: هل أنت صائم؟

أخرج الدهان من الصندوق، وتوقّف ثم انكبَّ على عمله وسرعان ما قال بصوتٍ خافتٍ:

- نعم، أنا صائم.

- ماذا يعمل والدك؟

- يعمل سائقًا، وقد اشترى شاحنة جديدة وذهب بحُمولة إلى مدينة قونية[1].

ثم بدأ يحدِّق في فروع شجرة الدلب مرة وفي الفضاء مرةً أخرى، كان يبدو كمن يحمل في قلبه الكثير من الهموم التي أنسَتْهُ جوعه، ثم حوَّل نظراته الكئيبة إليَّ قائلًا:

- قَدَمك الأخرى يا سيدي.

بدَّلتُ قدمي وقلت له:

- أَما تذهب إلى المنزل الآن!

- لا أذهب؛ فزبائني يتزايدون بعد المساء.

مسح حذائي بقطعة قماش نظيفة، فسألته:

- هل انتهيت؟

نظر إليَّ وعيناه تتلألآن، ثم قال:

- لقد دهنته بأفضل طلاء، لن تجده في أي مكان آخر.

- أسرع، أنا تأخرت.

فهدأ وبدأ يتباطأ، فقلت له:

---

(١) هى مدينة تقع وسط تركيا

- أسرع، سآخذك إلى مطعم الطباخ سامي، لقد صُمتَ اليومَ وإفطارك عليَّ.

انبسطت أساريره وبدأ بإنشاد أغنية شعبية.

رتبتُ طرفَي سروالي، ثمَّ أخرجت النقود، فردَّ يدي قائلًا وكأنه ابن عشرين سنة:

- لا يمكن هذا يا عم حليم.

- خُذ يا بنيَّ، فهذا حق إخوتك.

نَكَّسَ رأسَه، ووضعت النقود في جيب سترته.

خيَّم الظلام واقترب وقت الإفطار، وعندما دخلنا المطعم استند الطباخ سامي إلى الباب، ونظر إلينا ساخرًا، فترك كنعان الصندوق على الرصيف، واتّجه نحو دورة المياه، فقلت:

- أطعمه، وعليّ الحساب.

امتعض الطباخ سامي وقال:

- لا تفعل ذلك يا حليم، لا تدلّله.

- الصغيرُ صائم، دعه يفرح قليلًا.

أغلظ الطباخ صوته قليلًا وقال:

- صائم؟! جميعهم يكذبون، وهل مثل هذا يصوم؟!

-حتى وإن كان يكذب؛ فأنا لم أجد أحدًا أدعوه للإفطار.

قاطعني الطباخ سامي قائلًا:

- إن ما تفعله ليس صوابًا أبدًا.

واتجه نحو طرف الموقد، فقلت له:

- حسنًا، طاب مساؤك، أراك غدًا.

وضع الطباخ سامي الحَساء في الطبق، وغَسَل كنعان يديه وجلس على الطاولة ينتظر الطعام، خرجتُ وأنا أودّع كنعان وأُلوِّح له بيدي من بعيد، وفي هذه الأثناء أضاءت المئذنة، وحان وقت الصلاة.

تأخرتُ عن المنزل قليلًا، فوجدت زوجتي سميحة تنتظرني على النافذة وهي قلقةٌ ومتوترة بعض الشيء، ذكرتُ لها ما حدث باختصار، ثم جلسنا معًا على طاولة الإفطار، سَمَّيْنا الله وأفطرنا.

نعم أفطرنا ولكنني كنت حزينًا! البيت خالٍ، والكراسي خالية، شردْتُ بذهني في الذكريات، ثم أفقت مما انا فيه حين جاءت زوجتى ووضعت طبق الحساء أمامى، وبدأنا الحديث عن أبنائنا المغتربين.

ثم ذهبت إلى صلاة التراويح، وهكذا انتهى يومٌ آخر من شهر رمضان المبارك.


مطعم عم سامي

وفـي اليـوم التالـي فتحتُ الـدكان مبكِّرًا، وبينمـا كنتُ أُنظف أركانـه جاءنـي زبونـان؛ الحمد لله على هذه النعمـة، كنت منهمكًا فـي العمـل حتـى إننـي نسيتُ مُلمِّع الأحذيـة والطباخ سـامي، مرَّ الوقت سـريعًا وحلَّ المسـاء، فانطلقت إلى المنزل وقبل أن أصل إلـى الجسـر الحجـري حوَّلَـتْ رائحة الخبز مسـاري مـرّة أخرى، فاشتريت الخبز، وفي طريق العودة بحثت عن مُلمِّع الأحذية، فلم أجِدْه في مكانه، وقلت في نفسي كأنه قد خَجِل وغادر مكانه كي لا يقابلني، ليتني غيّرْتُ طريقي.

ذهبت إلى المطعم ودفعتُ الحساب، وتحدث الطباخ سامي بسخرية:

- أين الولد؟ لقد هرَب!

فقلت متمتمًا:

- لا.

فأشار بيده قائلًا:

- وماذا تتوقع؟ سيهرب بالطبع.

فقلت:

- مع السلامة.

وانطلقت في طريقي.

مـرتْ ليلـةٌ أخـرى، وبـدأت رَبْكَة الإفطـار، وبينمـا كنت عند المنعطـف وذهنـي شـارد، ظهـر ملمِّـع الأحذية فجـأةً أمامي، ولـم يستطع أن يهرب، فكان محرجًا متحيِّرًا، فاستجمع قواه ثم قال:

-إنه أنا يا سيد حليم.

- أعرف أنك لم تكن صائمًا، أليس كذلك؟

فقال وكأنه يكفر عن ذنبه:

- ولكني صُمتُ اليوم، حقيقةً صُمْتُ.

فـي البدايـة ضاق صدري وامتلأت عيناي بالدموع، ثم عَمَّتْ السكينة قلبي، وشعرت بالارتياح، فقلت:

- أنا أصدق كلامك يا ولدي، لا تقلق.

انشرح صدره، وفرح بمسامحتي له، ثم تابعتُ قائلًا:

- حسنًا، لن تذهب إلى المنزل هذا المساء، أليس كذلك؟

- إنَّ أمـي أعـدتْ لـي بعـض الأشـياء؛ وحـاول إخـراج صُرَّة صغيرة من الصندوق، فوضعت يدي على كتفه قائلًا:

- خالتك سميحة أعدَّتْ طعامًا لذيذًا، ما رأيك؟

لم ينبس ببنت شفة، وتبادلنا النظرات ثم قلت:

- لا تفكر، ستخرج للعمل بعد الإفطار.

اتجهنا سويًّا إلى المنزل، ومشينا معًا في برودة المساء من طريق مرصوفٍ بالأحجار، ولما وصلنا إلى المنزل كانت أنوار المئذنة قد أُضيئَت؛ ولم تلاحظ زوجتي الضيف في البداية، فذهبت إلى المطبخ، ثم ما لبثت أن عادت على إثر الصخب الذي أحدثه ملمِّع الأحذية، جالت بنظرها، فرأتْ كنعان وهو يحاول أن يضع الصندوق الصغير عند الباب، فانفرجت أساريرها وقالت:

-يا إلهي! لدينا ضيف، الحمد لله كنتُ حزينة لأننا سنفطِر وحدنا اليوم.

انشرح صدر كنعان لهذا الكلام كثيرًا.

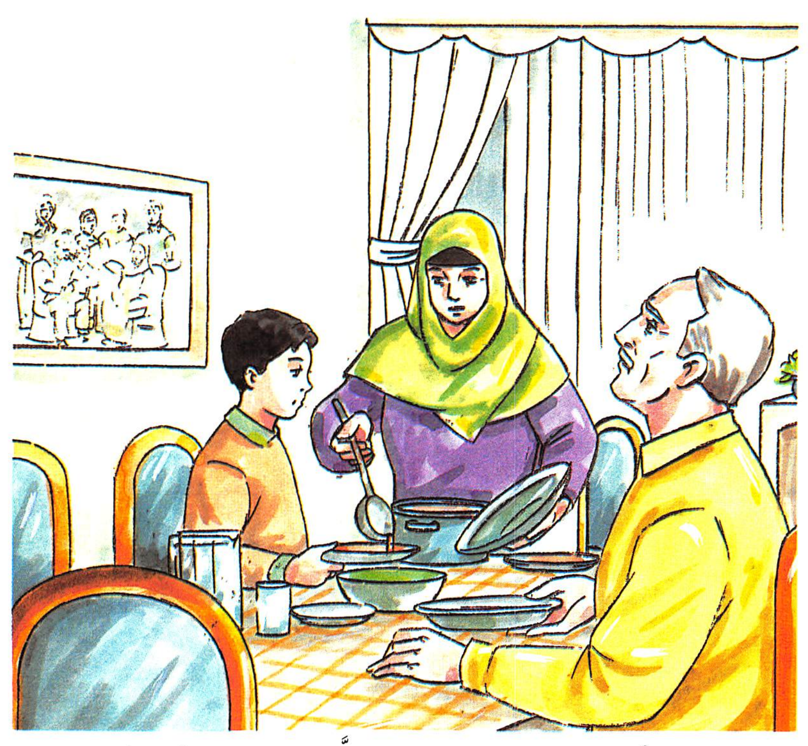
نظرتُ إلى زوجتي وقد اغرورقت عيناها بالدموع، وكانت تنظر إلى صور العائلة المعلقة على الحائط، لقد كنا عائلة كبيرة جدًّا، ولكن وا أسفاه كلٌّ ذهب في طريقه.

وجلسنا على الطاولة، كانت زوجتي سميحة تملأ طبق كنعان كلما فرغت، فكان يعجبه ذلك، لكنه لما شبع قال:

- الحمد لله، يكفي هذا، لقد شبعتُ.

ولما شبعتُ أنا أيضًا قلتُ: الحمد لله، ثم نهضتُ، فنظرا إليَّ، فقلت:

- سأتوضأ.



توضـأت ثم عدت فوجدتهمـا ينظِّفان الطاولة معًا، ثمَّ تناولنا الحلوى بعد الصلاة، وبدأتُ في الاستعداد لصلاة التراويح.

خرج كنعان إلى الحديقة، بينما كنا أنا وزوجتي نتحدث عنه، فزِعنـا علـى صوت ضجَّة عنـد مدخل الباب، إنـه صوت الأحذية تتساقط من الرَّف.

أتينا بسـرعة، فاندهشـنا عندما رأينا صغيرنا ملمِّع الأحذية قد قـام بإنـزال الأحذية وبـدأ يتفحصها واحدًا تلـو الآخر، بدتْ على

زوجتي علامات الانزعاج ولكنها كظمت غيظها ثم قالت:

- ما الذي تفعله يا ولدي؟

- سأقوم بتلميعها.

ثـم نهـض من مكانه وفـرزَ الأحذية، فكانت زوجتي سـميحة تحاول أن تَصْرِفه عنها قائلةً:

- لا تُرهِق نفسك يا ولدي، فبعضها لا نستخدمه.

- لا يا خالة، سألمّع أحذيتك أولًا.

ثم أمسك بحذاء ممزق وجعل يتفحصه قائلًا:

- إنه يحتاج لإصلاح.

بدأ كنعان بوضع الأحذية الممزقة في حقيبةٍ، وقال:

- سأذهب بالأحذية يا خالة.

قالت زوجتي:

- أتمنى أن تجد مصلِّح أحذية.

جهز كنعان مكانًا فى الحديقة ليلمع أحذيتهم، حاولت بشتى الوسائل صرفه عن هذا الأمر إلا أنه أصر على ذلك فقلت له:

- لقد أخذوا مكانك، لا تتأخر.

فردَّ ضاحكًا:

- لا تقلق، مكاني محفوظ، لقد اتفقت مع هارون.

ثمَّ وضع الأحذية المتسخة في الحقيبة.

أخذت الحذاء الذي كان بيده ووضعته في مكانه، وقلت:

- أسرع، لأدرك صلاة التراويح، لمِّعْها غدًا إن شئت.

فأصرَّ على تلميعها وقال:

- حسنًا، سألمِّع واحدًا منها فقط.

لم تتحمَّل زوجتي سميحة هذا الرجاء والتذلل، وأشفقت عليه وقالت:

- انتظر يا زوجي، لا تكسر خاطر الصبيِّ.

تركتهما واتجهتُ نحو بوابة الحديقة، فكانت زوجتي سميحة تراقب كنعان وهو منهمك في تلميع الأحذية.

يا الله! لقد كان هذا المنزل مُبْهِجًا بوجود أبنائنا بيننا، واليوم أحدهم بالجامعة، والآخر بالجيش، والفتاتان تزوجتا وغادرتا المنزل، وبقينا وحيدين في هذا المنزل الضخم.

مهلًا يا زوجي! ابنك حسن يطلب نقودًا ولابد لحسين أيضا، لأنه جندي، أرأيت كيف يكبَرون ويستقلون عن كنف أبيهم لكنَّ مشكلاتهم لا تزال تلاحقنا؟ يا الله ما أجمل عاطفة الأبوة!

بينما أنا غارق في أفكاري رُفع الأذان، والشارع مزدحم والجامع ممتلئ، وساحة المسجد مفروشةً بالسجاد، فبحثتُ عن مكان مناسب ودخلتُ في الصلاة.

في اليوم التالي طلعتْ الشمس، وازداد عدد الناس في الشارع؛ لقد تأخرت اليوم، وفتحت الدكان بعد جيراني، فأنا حقًّا رجلٌ مُسِنٌّ.

بدأتُ يومي المبارك بقراءة القرآن الكريم، فقرأتُ ساعتين لقلة الزبائن، وأجهدني الصوم حتى غفوتُ أكثر من مرة، ثم استسلمتُ للنوم وأسندت ظهري إلى الحائط، وإذا بضوضاء في الخارج، فما إن صاح أحدهم حتى بدأ الشجار وعلتْ الأصوات.

خرجتُ من الدكان خائفًا مرتبكًا، ورأيت الحرفيين قد تجمَّعوا أمام بائع الشاي، وصاح نجاد لأحدهم:

- كفى اخرج من الدكان!

أما صُهيب فقد أمسك به ثلاثة رجال وكان يقول وهو غاضب:

- لن أخرج، ولن يستطع أحد أن يخرجني!

كان نجادٌ غاضبًا ويقول بصوتٍ متقطعٍ:

- إنَّه دكاني، ما تركتَ شيئًا إلا فعلتَه، لقد سئمت منك، وأصبحتَ لا تُطاق.

حاول صُهيب أن يتفلَّتَ من المُمْسكين به بكل ما لديه من قوة قائلًا:

- اتركوني.



أما نجاد فقد كان يعدّدُ ما ارتكبَه صُهيب قائلا:

- إنك لم تدفع الأجرة منذ أشهر، ولم تدفع حساب الكهرباء والمياه، لقد طفح الكيل.

ازداد غضب صُهيب لمَّا افتُضِحَ أمره أمام الناس وقال:

- ماذا تظن نفسك يا هذا؟!

ضاقت أخلاق نجاد الحليم، وأراد أن يبدأ في الشجار، لقد تجاوز عمره الخمسين، وكان مصارعًا في شبابه، ولو تُرِكَ لتغلَّب رغم سِنه على صُهيب، فأمسكتُ ذراعه وجذبتُه بشدة، فصاح:

- اتركني!

ثمَّ التفت إليَّ، وعندما رآني تغَّير لون وجهه، وندم على ما فعل! وذهب جمهور من الناس بصُهيب إلى وسط الحارة، ولله الحمد أن المشاجرة انتهت ولم تتفاقم أكثر من ذلك.

عاد نجادٌ إلى رشده، وبدأ يفكِّر بهدوء وقال:

- لقد سئمت يا حليم، إنه تأخرعن الدفع عدّة أشهر، ولقد تراكمتْ عليه فواتير ثلاثة أشهر، تخيَّلْ أنهم جاؤوا إلى بيتي يطالبونني!

ابتسمتُ له ثمَّ قلت:

- هيا نذهب إلى الدكان، لا تشاجر أحدًا وأنت صائم.

- وأيُّ صيام تتكلم عنه؟!.

- المصارع الحقيقي هو من يملك نفسه عند الغضب يا نجاد.

لم يُحِرْ جوابًا، ونظر إلى وجهي فقلت:

- إنك صائم، لا تنسَ ذلك.

انطفأ غضبه وعاد إلى صوابه.

تفرَّق الناس رويدًا رويدًا، وعاد كلُّ شخصٍ إلى عمله، وشعرنا بجوِّ الربيع اللطيف، فالنسيم عليل، والشمس في كبد السماء والغيوم حولها، تارة تظهر وتارة تختفي، إن النشاط يَفتُرُ قليلًا مع الصيام، ولكن بالمقابل يبتعد الإنسان عن الضغينة والكراهية والغضب شهرًا كاملًا.

قلت في نفسي:

- كم هو جميل شهر رمضان؟! عجبًا كيف يتشاجر الناس فيه؟!

وصلتُ إلى الدكان؛ كان هناك شابٌ ينتظرني، فأشرت إلى نجاد ليجلس في الظل وقلت وأنا أمازحه: اذكر الله حتى أرجع، لو لم نكن صائمين لقدمت لك الشاي.

فهزَّ رأسه قائلًا:

- إن تغيير المكان جيِّد يا حليم، تولَّ أمر الزبون أنت، وأنا سأقرأ الأذكار.

قلت للزبون:

- تفضل يا خليل.

ناولني خليل القائمة قائلًا:

- إنَّ صاحب العمل يريد هذه الأشياء.

كانت القائمة طويلة جدًّا، فقلت:

- يا لَلهول! ماذا ستفعلون بكل هذه المعدات؟

- لقد بدأنا في بناء جديد، وغدًا سنأتي بشاحنة ونأخذها.

- حسنًا، سأقوم بِعِدَّة اتصالات لأحصل عليها، فإن استطعت أن أجهزها فتعالوا بعد العصر لتأخذوها.

- هذا جيدٌ جدًّا.

ثم خرج.

وبينما كنت أتفحص القائمة خطرت لي فكرة، فركضت وناديتُ:

- يا خليل، رجع خليلٌ إليَّ فسألته:

- كم شخصًا يعمل معك؟

نظر إليَّ متحيرًا متعجبًا، فأعدتُ عليه السؤال.

- كم شخصًا معك في البناء؟

زاد فضول نجاد، ووجه الكرسي نحونا يتسمَّع إلينا فأجاب خليل:

- ستة أشخاص.

- حسنًا، إنني أنتظركم جميعًا يوم الخميس في هذا الأسبوع لتناول الإفطار عندنا في البيت.

اندَهش خليل وسأل متحمسًا:

- لكن عددنا كبير!

- لا يا ولدي، ليس كبيرًا، لقد كانت عائلتُنا ستة أشخاص في الأصل.

- آه، لقد انقضتْ تلك الأيام.

وما زال خليل يتعجب ويقول:

- حقًّا!

- حقًّا، حقًّا.

فسألني نجاد بصوتٍ غليظٍ بعض الشيء:

- وهل أنتم جميعًا صائمون؟

- ماذا؟! إنّ من لم يصم في الماضي صام اليوم يا أخي.

استكمل نجاد أسئلته:

- كيف سيعملون وهم صائمون؟ كيف سيتحملون؟

-أنت يا أخي تعمل وأنت صائم! وهم رجال وليسوا أطفالًا!

- يا الله! إن ساعات الصوم تنقص كلما مرّ يوم من رمضان.

ودعوت نجاد أيضًا.

ضحك نجادٌ وقال:

- حسنًا، سآتي، ولكن عليّ إعداد الحلويات.

قُرَّت عينا خليل، ونسي نجاد المشاجرة التي حدثت منذُ قليل، وانبسطت أساريره، وقال في نفسه:

- شهر رمضان شهر بركة وخير.

قال نجاد:

- وبعد غدٍ سأدعوكم للإفطار عندي.

أخذتُ كرسيًّا وجلست عليه قائلًا:

- إنهم مساكين، لقد جاؤوا من أقصى الوطن طلبًا للرزق، إنَّ الثواب سيكون عظيمًا في ذلك اليوم يا نجاد.

حاول خليلٌ أن يقبّل يدي، فضحك نجادٌ، وقال وهو يمازح خليلًا:

- انصرف فورًا قبل أن أُغير رأيي.

انطلق خليلٌ بسرعة عبر الطريق المرصوفة بالحجارة، فتابعناه بأنظارنا حتى اختفى.

وضعتُ يدي على كتف نجاد، ثم أخذتُ الكرسيّ وجلستُ أمامه قائلًا:

- هيا اشرح لي ما هو سبب المشاجرة؟

- لا تسألني يا حليم، لقد انشرح صدري، لا تذكِّرني.

- إن شهر رمضان هو شهر اليُسر والبركة، يجب ألا تصوم بطوننا فقط، بل يجب أن تصوم ألسنتنا عن الكلام القبيح واللغو والتذمُّر والغضب والشجار.

استمع نجادٌ إليَّ بإنصاتٍ، ثم شرد بذهنه، وكلما تحدَّثت أومأ إليَّ برأسه مصدقًا كلامي.

فتابعتُ قائلًا:

- يجب أن تصوم أعيننا وآذننا وجوارحنا الأخرى أيضًا، فلا ننظُر إلى المحرمات، ولا نُنصِت إلى ما حرَّم الله كالغيبة والنميمة واللغو والشائعات.

- أنت على حق يا حليم، ليت صُهيبًا يفهم ذلك.

أسندتُ ظهري إلى الحائط قائلًا:

- ماذا ستفعل؟



- لقد ضِقتُ به ذرعًا، سأخرجه من الدكان.

- ليتك تنتظر انتهاء رمضان.

لم يُحِر جوابًا، ثم نهض وهو متعب وقال:

- هيا، مع السلامة.

شهق وزفَر ثم همَّ بالرحيل،



فسمعنا حينئذ ضجَّة الشِّراع الحديدي لدكان جارنا جرجس، نظرنا فإذا جرجس يرفع الشِّراع الحديدي بصعوبة، لقد كنتُ قلقًا عليه فأنا لم أره منذُ ثلاثة أيام، وبعد أن ودَّعتُ نجادًا، اقتربت من الواجهة الزجاجية، فوجدتُه يحاول إخراج الصناديق خارج الدكان، فساعدته في إخراج أحد الصناديق الثقيلة، فقال:

- أثقلتُ عليك يا حليم، رجاءً لا ترهق نفسك.

- لن أموت من حمل صندوقٍ يا جرجس؛ لم نرك منذ ثلاثة أيام، هل أصابك شيء؟

وضع الصناديق على حافَّة النافذة واعتدل، ثم تأوَّه قائلًا:

- لا، لكن كانت الظروف سيئة.

ثم أخرج من جيبه منديلًا ومسح عرقه، وأراد أن يتناول زجاجة الماء، فتذكر وقال:

- لا تؤاخذني، لقد نسيتُ أننا في رمضان.

وأخفى زجاجة الماء ببطء.

ثم أخرج من خلف المنْضَدَة مكنسته ذات اليد الطويلة، وبدأ بالتنظيف أمام الباب، تلفَّتَ حوله فوجد كل الأركان نظيفةً، فقال والفرحة تملأ عينيه:

- شكرًا يا حليم، لقد نظَّفتَ أمام دكاننا أيضًا.

- لقد نظّفتُ على قدر استطاعتي، أين عاملُك؟

- ذهب إلى القرية وسيأتي غدًا.

أمسكتُ ذراعه، وجذبته إلى واجهة الدكان، قائلًا:

- يبدو أن صحتك متدهورة، ما رأيك أن أطعمك طعامًا لذيذًا اليوم؟

- لا، وشكرًا، أنا بصحةٍ جيدة.

لم يقبل دعوتي، إنَّه يتألم ولكنه لا يُفصِح فسألته:

- أمَا ينبغي أن تُفصِح عما بك!

شرد بذهنه، ثم حدَّق بعينَيْه في وجهي، وكان متعبًا ومرهقًا للغاية، ثم قال:

- إنَّ زوجتي مريضة، لقد أتيتُ بها إلى المنزل أمس.

وهو أيضًا يعيش مع زوجته مثلي، ولا أحد يساعدهم من قريب أو صديق، فسألته:

- من بجانبها؟

فلم يجب، يبدو أن زوجته وحيدة في المنزل، ثم رفعتُ صوتي قليلًا وقلتُ:

- لماذا لم تخبرني يا جاري العزيز؟ وإلا فما فائدة الجوارِ؟ سوف أتصل الآن بزوجتي سميحة، وستذهب لمساعدتها، وإذا لزم الأمر فستجد لها في المنطقة من يرعاها.

وهممتُ بدخول الدكان، فوضع يده على كتفي، وقد امتلأت عيناه بالدموع قائلًا:

- شكرًا يا حليم.

- لا تنزعج أبدا، كل شيء سيصبح على ما يرام.

ودخلتُ إلى الدكان لأتصل بزوجتي، وطلبت منها أن تذهب إلي منزل جرجس، ثم خرجت بعد قليل، فإذا بجرجس قد جلس أمام الباب ينتظر الزبائن.

أخبرته بأنَّ زوجتي سميحة سوف تذهب لمساعدة زوجته فورًا، فانبسطت أساريره، وعدتُ إلى عملي وأنا مرتاح البال فقد أدخلت السعادة إلى قلب جاري.

كثر الناس في الشارع، ونشطتْ حركة التسوق، ورغم أننا في شهر رمضان؛ فقد منَّ الله عليَّ بالبيع الكثير وبشكل مذهل، فلله الحمد على ما رزق فهو الرزاق ذو القوة المتين.

تأهبتُ لصلاةِ الظهر وخرجتُ من الدكان، ورأيت أن الحرفيين يتوافدون إلى الجامع، التقيتُ بكنعان في فناء الجامع، فناولني حقيبة بلاستيكية كانت بيديه قائلًا:

- لقد قمتُ بإصلاح جميع الأحذية، وبقِيَ حذاءٌ واحدٌ سآتي بعد قليل لألمّعه.

ثم دخلنا معًا لأداء الصلاة.

وبعد الصلاة خرجنا إلى الشارع، التفتُّ حولي فإذا بالباعة المتجولين قد اصطفوا على الرصيف الخالي بجانب المطعم، وعندما عدنا إلى الحي، تقابلنا مع نجاد مجددًا، كاد يستشيط غضبًا واحمرّ وجهه، فأمسك بيدي دون أن ينبس ببنت شفة، وعبر بي إلى الطريق المقابل وكان يجذبني وهو غضبان؛ وصلنا أمام باب الدكان الصغير، رأيت بعض الأشياء قد انقلبتْ رأسًا على عقب في الواجهة الزجاجية، فتح الباب، فإذا بكلّ شيء قد تحوَّل إلى خرابٍ تمامًا، وهناك بعضُ الأشياء مبعثرةٌ على الأرض أيضًا.

عمت الفوضى المكان، فطلاء الحائط قد كُشِط، والسلك قد يتدلى من جوانبه؛ تجوَّل نجاد في الداخل، ثم وضع يديه على خصره، وبدا يائسًا للغاية، ثم قال:

- هل يجوز أن يفعلوا بي كلّ هذا يا حليم؟ لقد كان هذا المكان باب رزقي، ماذا سأفعل الآن؟

نظرت إلى الداخل بعينَي بنَّاءٍ، كانت هناك بعضُ الخسائر، ولكنها لا تُكلف الكثير من المال، إنما تحتاج لأيدٍ عاملة فقط، فقلت له:

- سأساعدك بعد الإفطار، إن الباب والنافذة سَلِيْمان، على أية حال لو لم نكن في شهر رمضان؛ لقمتُ بطلاء الحائط بيدي.

وبينما أحاول تعزيته من ناحية، بدأتُ بحساب ما يلزم عمله من ناحية أخرى.

جلس نجاد على مقعد مكسور، وظلَّ يفكر مليًّا، فقلت:

- هل وجدت صُهيبًا؟

- لا، لقد هرب.

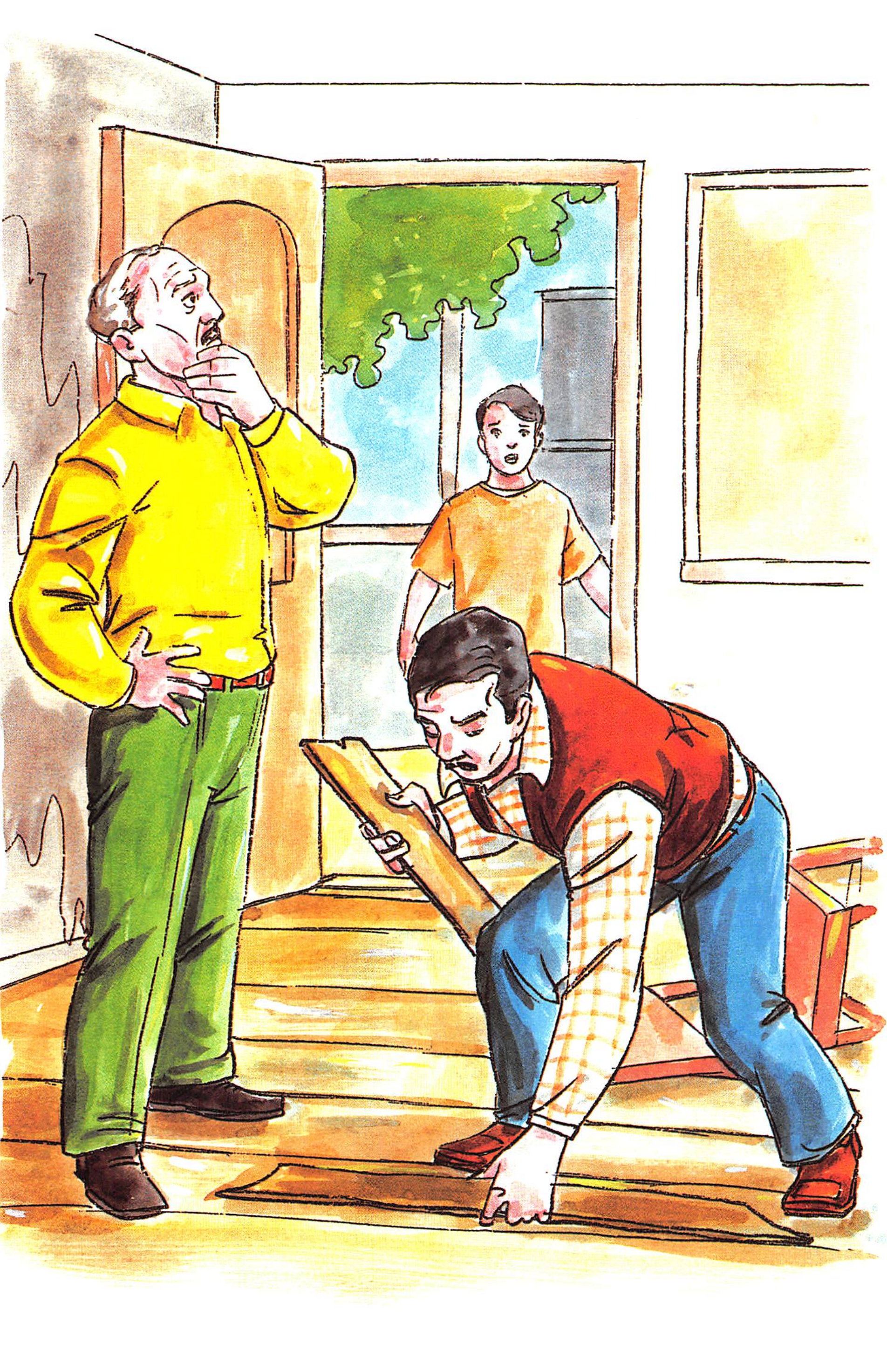
- لم يحالفه الصواب قط، انظر يا نجاد.

اعتدل نجاد فإذا هو بكنعان ينظر مندهشًا، فقلت:

- تعال نُصلح الدكان معًا، لن يُكلف الأمر كثيرًا، وأنت تمتلك دكاكين أخرى، أليس كذلك؟

فأجاب نجاد وهو يتجنب النظر إليَّ:

- ليس بالكثير، فأنا لستُ غنيًّا بهذا القدر.



- كُفَّ عن هذا الحديث، فهناك الآلاف من البشر يتمنون أن يكونوا مكانك الآن.

- أنا أقول الحقيقة، إجمالًا هي خمسة دكاكين.

- وهل هذا بقليل يا نجاد؟!

- لماذا تسألني عنها؟

- يكفيك ما بقي من الدكاكين وربما ستزيد.

لم يفهم نجاد مرادي من هذا الكلام.

ألقيتُ نظرة أخرى إلى الدكان قائلًا:

- لقد أخطأ صُهيب، كان عليه أن يترك الدكان بِرَوْنقه، لا بد أن أتحدث مع والده، وسيتحمل التكاليف.

- سيتحمل التكاليف!

- لا تقلق، إن العمّ حسن رجل طيب، وقد سَئِم أيضًا مما يفعله صُهيب، ولكن مهما فعل فهو ابنه ولن يتخلى عنه.

تذكر نجاد أبناءه فقال:

- نعم صحيح.

نظرتُ إلى كنعان وكان ينتظر أمام الباب، ثم قلتُ لنجاد بوجه بشوش:

- لديَّ اقتراح.

وضع نجاد حطام الأخشاب التي جمعها في زاوية؛ ثم عاد إلينا.

قلتُ وأنا أداعب شعر ملمِّع الأحذية الصغير:

- ما رأيك أن تؤجرنا الدكان؟

إنها نوايا حسنة في يوم مبارك من أيام رمضان، فقد نبع هذه الاقتراح من قلبي وجرى على لساني.

لم يجب نجاد، وبدا يائسًا للغاية، ولكنه نظر إلى ملمع الأحذية الذي كانت عيناه تتلألآن وهو يتلفت حوله متعجبًا فقلت:

- ألا يمكن ذلك يا نجاد؟ الدكان صغير، وهو يصلح أن يكون دكانًا لصبي قَهواتي أو لملمع أحذية، ثم عُدت إلى ملمع الأحذية قائلًا:

- ما رأيك يا كنعان؟

- عمّ حليم!

- صه، فلنستأجره أولًا، ثم ننظر ما سنفعل لاحقًا.

أجاب بصوت خافت:

- لا أعلم.

اقتربت من نجاد وقلت:

- لكنك ستؤجره بسعر مناسب.

ثم تجولتُ داخل الدكان وقلت:

- أمهلْنا بضعة أيام، لنقابل والد كنعان.

أُعجب نجاد بهذا الاقتراح، وقال:

- حسنًا، المُهلة حتى يوم الإثنين، وأنا حقيقةً ليس بوسعي أن أفعل أيَّ شيء حتى ذلك الوقت، من سيستأجر الدكان؟

- إن شاء الله سيستأجره كنعان، أليس كذلك يا كنعان؟ لا يوجد ملمع للأحذية في حَيّنِا، فالأنسب أن تعمل هنا.

مسكت بذراع نجاد؛ وخرجنا إلى الحارة معًا ثم قلت:

- هيَّا لنذهب إلى دكاننا، فالإنسان يختنق وسط هذه الفوضى.

ابتسم نجاد قائلًا:

- أنت على حق يا حليم، تعال نذهب.

كانت السماء ملبدة بالغيوم، وحرارة الجو قد سفعت المكان من حولنا، والرياح الدافئة تتهادى في أنحاء المنطقة وتجرف الأوراق المتساقطة على الأرض.

أتى كنعان يمشي بخطوات بطيئة، فعدتُ إليه وسألته:

- متى سيعود والدك؟

أشاح بوجهه متضجرًا وقال:

- يُفترَض أن يأتي اليوم.

- اركض وأَخبِر من في المنزل، وإذا وجدته فأخبره بدعوتي.

راح يركض مسرورًا ونسي أنه صائم، ولا يلتفت إلى أحد، فقال نجاد:

- لقد سُرَّ الطفل، ولكن هل لدى والده مالٌ؟

- أنت تركز على المال دائمًا، ساعده لوجه الله، هيا أعطني مفتاح الدكان.

ناولَني المفتاح، ثم نهض قائلًا:

- أنا ذاهب، وسأمر على السوق لأتسوَّق بعض الأشياء، فقمت وودعته إلى الباب.

عاد بائع الخضروات والجزار وبائع المقبلات وصانع الأحذية إلى دكاكينهم، وكان العمُّ إسماعيل الشيخ الكبير يشرح شيئًا لبائع الحساء.

يا للعجب! رغم كبر سنه يسعى لتعليم القرآن وتحفيظه، والحمد لله أنني التحقتُ برَكْبِه وبدأت أتعلم القرآن.

كان الوقت قد تأخر للغاية، وعمَّ الظلام الدكان، كنت أقرأ

القرآن فرفعتُ رأسي بعد أن انتهيت من تلاوة الآية، فإذا أنا بشخص عند الباب فقلت:

- تفضل، ماذا تريد؟

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

أغلقتُ المصحف ونهضتُ مشيرًا إليه أن يجلس، وأنا أحاول أن أتعرّف على هويته، يا ترى هل هو زبون أم ماذا؟ تفحَّصته من رأسه إلى مفرق قدمه، فكان يرتدي قميصًا أسود، ووجهه أسمر قليلًا، مسرحًا شعره ناحية اليمين، فقلت:

- تفضل لو سمحت.

فابتلع ريقه وقال بخجل:

- أنا والد كنعان.

شعرت بالفرح والسرور البالغ، وخرجت من وراء الطاولة، واحتضنته قائلًا:

- مرحبًا بك، متى عُدت من قونية؟

- ليلة أمس.

- وماذا عن العمل؟

صمت برهة وتنفس الصُّعَداء، ثم قال بحزن عميق:

- الحمد لله على كلّ حال.

ولم يزد على ذلك، فقلت:

- نعم، صحيح يجب أن نحمد الله على كل حال.

تبادلنا النظرات ولا ندري من أين نبدأ الحديث، وهنا كسر والد كنعان حاجز الصمت قائلًا:

- إن كنعان لا يذهب إلى المدرسة، وله أختان في المنزل، إن ولدي غلامٌ صالحٌ ومتفهمٌ للغاية؛ ولذلك يحبه الناس جميعًا في المنطقة.

ولوّح بيده في الهواء وكأنّه يعبِّر عن بؤس ويأس، وكان يتجنب أن ينظر إليَّ وعيناه تدمعان، ثم نكَّس رأسه قائلًا:

- لا شيء يجدي يا عمي، لقد أردتُ أن أرسله إلى المدرسة مرارًا، واشتريتُ شاحنة بالتقسيط، وبإذن الله سيزول الضّيق عني مع حلول الصيف، ومن يدري فربما أرسله العام القادم، إنَّ إعالة الأسرة ليس بالأمر اليسير.

ثم حدق بعينيه الممتلئتين بالدموع في نقطة ما وظلَّ هكذا، فقلت:

- لقد تقابلت مع نجاد، وسيؤجرنا دكانه، لقد أخبروك طبعًا.

بدا حزينًا، ونكَّس رأسه ولم يستطع أن ينظر إلى وجهي، ثم قال:

- أحسنتم التفكير، بارك الله لكم.

- سيكون في منطقتنا مصلح أحذية إن شاء الله، في البداية يقوم بتلميع الأحذية، وبعدها مباشرةً يتعلم إصلاح الأحذية.

-جميل ما تقوله يا عمي ولكن ليس لديَّ نقود.

ثم وقف وقال:

- كنتُ أتمنَّى هذا، ولكنني لا أستطيع أن أقوم به، ففتحُ الدكان يحتاج إلى النقود وأنا لا أمتلكها.

تلاقتْ أعيننا فقلت:

- وماذا يعني هذا؟

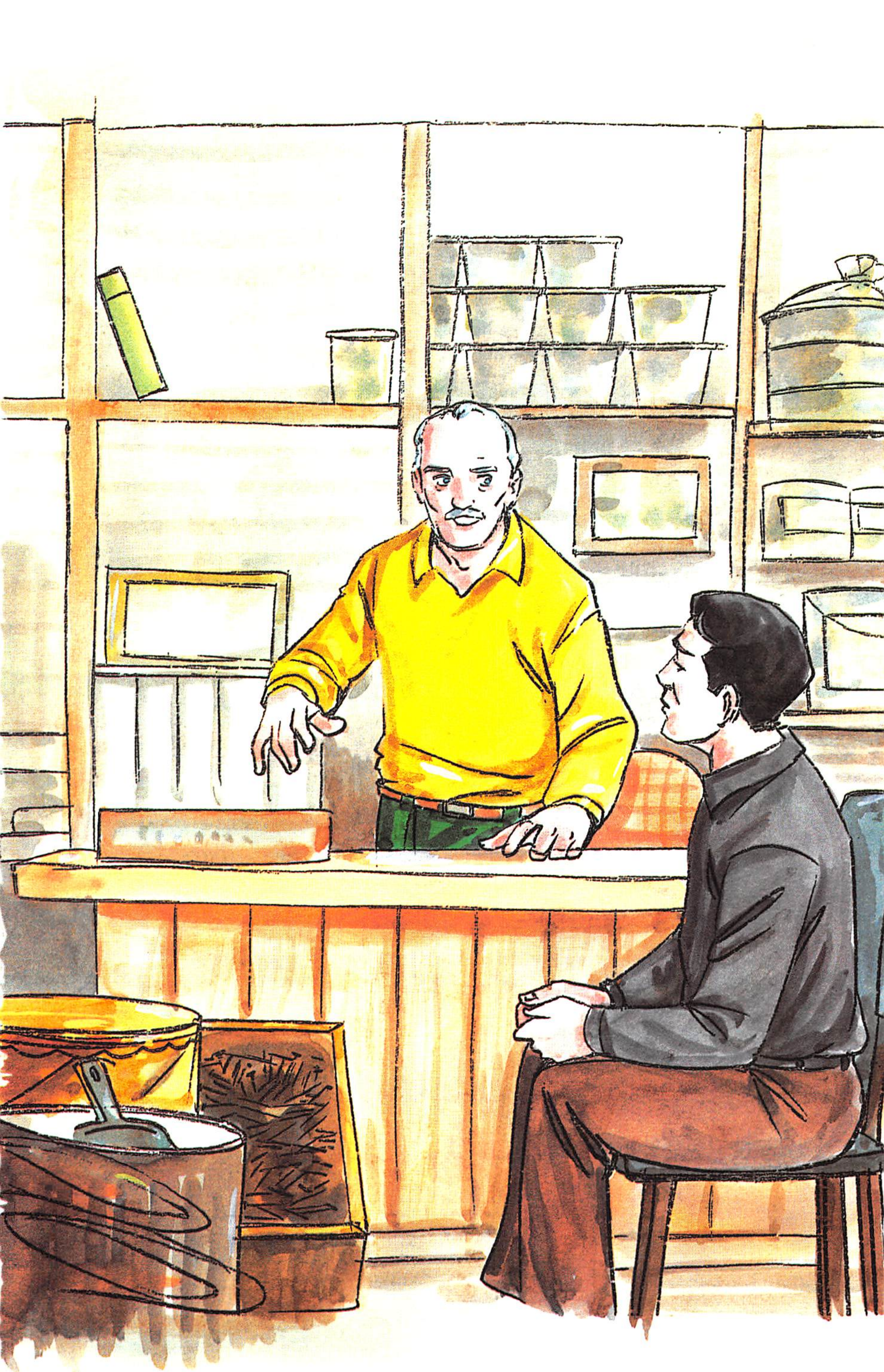
- إنني أقول لك يا عمي، مستحيل لا أستطيع أن أقوم بذلك.

لقد شعرت بخيبة أمل، فنهضتُ وتجولتُ بالداخل باحثًا عن حلٍّ، ثم عدتُ فجأة لوالد كنعان وقلت:

- أمر مُحزِن، ماذا سيفعل هذا الصبي بصندوق الدهان في هذا الشتاء القارس؟

لم يُحِرْ جوابًا، ثم نهض وأخذ قبعته وخرجنا معًا، ووضعتُ يدي اليمنى على كتفه قائلًا:

- فَكِّرْ مليًّا يا بني، لدينا فرصة حتى يوم الإثنين ثم سأسلم المفتاح لنجاد.



- شكرًا لك، لقد فكرتم لنا ولكن ما باليد حيلة، مع السلامة.

ثم ذهب واختفى وسط زحام السوق.

ما إن اختفى حتى بدأت ركبتاي بالارتعاش وقلت في نفسي:

- يا للأسف ثم دخلتُ إلى الدكان.

وفي ذلك اليوم بحثت عن كنعان حتى المساء؛ فمن يدري كم حزن المسكين لرفض والده الدعوة؟!

أفطرنا في كآبة، وحزنت زوجتي سميحة لما حكيت لها ما جرى بيني وبين والد كنعان، وبينما كنتُ في طريقي إلى صلاة التراويح أخذتْ زوجتي الأحذية التي تم تلميعها وإصلاحها، ونظرنا إلى بعضنا، كانت الأحذية قد تم تلميعها بعناية فائقة، لقد قام كنعان بعمل جيد.

بدأنا في السير أنا وزوجتي سميحة، واستعدت نشاطي قليلًا في هذا الجوّ الجميل والربيع المعتدل، وكلما اقتربنا من الحارة نظرتُ بتمعن في الأطفال المارّين من أمامنا، باحثًا عن شخصٍ يهمني أمره، ولكن بلا جدوى؛ فلم أستطع أن أرى ملمع الأحذية الصغير.

قابلت نجادًا عند فِناء الجامع، وأخذَنا الحديث ونحن واقفون، وأردتُ أن أقول: إننا لن نستأجر الدكان، ثم تراجعتُ، فما زال هناك يوم كامل على الموعد.

وها قد مرّ ذلك اليوم، كان صباح يوم الإثنين باردًا جدًّا، ففتحت الدكان على مضضٍ وكنستُ أركانه؛ وصل جرجس مبكرًا، ولاحظ أنني شارد الذهن، ولكنني استأذنتُ منه ولم نتحدث كثيرًا.

وضعتُ الممسحة والجاروف في مكانهما، والتقطتُ الأشياء المتساقطة خلف الطَّاولة، كان خصري يؤلمني قليلًا، فنهضتُ بصعوبة فإذا أنا بامرأة عند الباب، فقلت لها:

- تفضلي، ماذا تريدين؟

اقتربتْ بصمت ثم قالتْ:

- وفقك الله، أريد أن أرى المعلم حليم.

ملامحها ليست غريبة عليَّ، إنها تذكرني بشخص ما، وبينما كنتُ أحاول أن أتذكر، قالت:

- أنا والدة كنعان.

نعم شعرت بسعادة، ولكنها سعادة لم تخلُ من الهمّ، لأننا لم نستطع أن نفعل لكنعان ما كنا نفكر به.

قالت:

- بارك الله فيك، سمعت أنك ستستأجر لابني دكانًا في الصباح، ليذهب إلى المدرسة مساء.

- صحيح، ولكن ما باليد حيلة؛ فوالده لم يوافق.

وغاب كنعان عدة أيام، ثم سألتها بشغف:

- أين كنعان؟

كانتْ خجْلَى كما لو أنها ارتكبت ذنبًا، ثم قالت:

- ذهب إلى الحي المجاور.

- لماذا؟

نكَّسَتِ الأمُّ رأسها وقالت بصوتٍ خافتٍ:

- خجلًا منك يا سيدي.

ماذا فعل الطفل؟! عرفتُ، إنه يهرب إلى الحي المجاور خجلًا منّي.

لقد هرب إلى الحي المجاور لينسى أمر الدكان؛ فكم كان يتخيل أنه سيستأجره ليعمل فيه، إنه على حقّ فلو كنتُ مكانه لفعلتُ مثل ما فعل، ولكن ما باليد حيلة؛ تضايقتُ لما فكرْتُ في هذا كلّه، لكن حاولتُ أن لا أُشعِر أمّ كنعان بما في نفسي.

أخرجت الأم من نطاقها حقيبة صغيرة من القماش، حلتْ رباطها وأفرغتها فسقط منها سواران! نظرتْ إليَّ ولكنني لم أفهم شيئًا، واغرورقت عينا المرأة بالدموع، وقالت:



- أعددتهما للكفن، خذهما، واستأجر الدكان.

كانت كلماتها الأخيرة كالسهام تُغرس في قلبي، ولم أتحمَّل هذه التضحية، أخذتُ السوارين وقلت:

- ماذا سيقول زوجك لو علم بالأمر؟

-زوجي يتمنّى هذا، ولكن مشكلته الوحيدة كانت في تأمين النقود خاصة أن عليه دينًا لصاحب السيارة؛ لذا قال لي: عليه أن يعمل ويتعلم.

ابتهجتُ وقلت:

- هذا ما أردنا، لقد تم مرادنا ولله الحمد، كم عانيتُ في هذه المدة! سنوفق بإذن الله.

هذا يعني أننا سنستأجر الدكان، وسيذهب لمدرسته المسائية العام القادم.

ثم سألتها هل لدى كنعان علم بذلك، فقالت:

- لا.

قلت: أرسلي إليه فورًا.

فقالت:

- حسنًا.

استأذنتْ وخرجنا معًا، وكان جرجس ينظر إلينا باندهاش! ولكنه كان سعيدًا عندما رآني وقد انشرح صدري وقال:

- ماذا حدث يا حليم؟ لقد تغيرت فجأة.

فغمزته وقلت:

- سوف أشرح لك لاحقًا.

وودعتُ والدة كنعان.

جلستُ أفكِّر في كلّ ما حدث، فهذه زوجة جاري قد شفيت، وذاك الوالد قد تضامن مع ولده فسدد عنه دَينه، وملمع الأحذية بدأ يعمل في دكان ويدرس مساءً، نعم «**الخير فيّ وفي أمتي إلى يوم القيامة**»، بهذا بشرنا رسول الله ﷺ، وهو ما شاهدته هنا والحمد لله.

مياه الحديقة

هبَّ النسيمُ العليل بين الأوراق النابتة حديثًا، وإذا بمصطفى القفَّال يصيح: «قف، قف» ليُوقفَ الحيوان المبلل بالعرق، وعندما أشرقت الشمس أخذ يمسح العرق مِنْ على جبهته بمنديله، فقد غَمَرَ العرق عينيه، فراح يفركهما ليتمكن من الرؤية، ثم ترك لجام فرسه على المحراث، واتَّجه نحو ظلِّ شجرة الكمثرى المُتقطع، وثنى العشب الذي بلغ طوله إلى ركبتيه، وهيَّأَ مكانًا لنفسه ليجلس فيه، ثم أسند ظهره إلى جذع شجرة الكمثرى الناتئ، وشرب من مياه الجرة وغسل وجهه، وكأن عينيه نشطت من جديد.

غطَّى الذباب الحصان، فراح يهزُّ ذيله، وكان قد حرَث نصف الحقل وبقي النصف الآخر.

تنفس مصطفى، ووضع حبة الصنوبر المستخدمة غطاءً للجرة في أحد الأركان، ثم رفع الجرة، ورشف رشفة أو اثنتين من المياه، والتفت إلى الصوت الذي جاء من خلفه، فإذا بالجدة هاجر قد أتت، وقالت:

- أعانك الله يا قفَّال، هل أفزعتك؟

أسند الجرة إلى الشجرة، وحاول أن ينهض، لكن الجدة هاجر منعته من أن ينهض وبادرته قائلة:

- لا يا بني، لا ترهق نفسك، اجلس واسترح، فأنت منهك ومنذ الصباح تحرث الحديقة.

أسند مصطفى ظهره مرة أخرى إلى الشجرة، ثم فرش الخُرج الذي بجانبه على الأرض، وقال:

- تفضلي يا جدة، اجلسي هنا، وأنتِ أيضًا يبدو عليك الإرهاق.

جلست الجدة هاجر في الظل وقالت:

- أنا أشعر بالإرهاق حقيقة، فقد أتيت من القرية، وعندما رأيتك أحببت أن أطمئن عليك.

نظَرَتْ إلى مصطفى ثم أشارت بيديها إلى عينه الحمراء، وقالت:

- ما هذا؟ هل أصاب عينك شيء؟

فرد القفال قائلًا:

- لا يا جدة، لا بأس، تصببت عرقًا، فغسلت وجهي.

أومأت الجدة هاجر برأسها وقالت:

- عافاك الله يا ولدي، اهتمّ بنفسك.

القفّال:

- شكراً يا جدة.

ازداد حفيف أوراق شجرة الكمثرى، وداعبت ظلالها وجهيهما، وفاحت بالجو الرائحة النديّة للتراب المنبعث من الحقل المحروث، فاستنشقت الجدة هذه الرائحة بنفس عميق، ثم نظرت إلى الحقل وقالت:

- لاحظتُ أنكَ قد حرثتَ الحديقة، وأظن أنك ستنهي عملك مساء.

فقاس القفال الجزء المتبقي من الحقل بطرف عينيه، وقال مبتهجًا:

- إن شاء الله سينتهي العمل اليوم، وإن لم ينتهِ اليوم ففي الغد، سأنتهي مع أذان المغرب إن شاء الله.

نظرت الجدة هاجر إلى قطع من سحب متفرقة في السماء، دفعتها الرياح الساكنة نحو رؤوس الجبال، وقالت:

- لو كان القمر بازغًا لحرثْتَ ليلًا، فالحيوان لا يُنهك في الجو المنعش، انظر إلى ظهر هذا الحيوان، إنَّ عرقه لم يجف، أحسنْ إلى هذا المسكين وأطعمه.



صدَّق القفال كلام الجدّة وقال:

- أنـا أطعمـه منـذ الشـتاء، إنه قـويّ، وأنـا أعطيه علفـه وماءه بانتظام ليقوم بأعمالنا.

الجدة هاجر:

- أنا أعرفك، فأنت تعتني بالحيوان جيدًا وتعطيه حقه؛ ليقوم لك بالعمل المطلوب.

أمعن القفال نظرَه في الحقل، وقال:

- سـنزرع الخضروات قريبًا، وقد عزمت على حرث الحقل بعد هطول الأمطار.

الجدة:

- حسـنًا فعلت، فالخضروات تنضج بشـكل أفضل إذا حُرِث الحقل لا سـيما إذا سُـمِّدت، حينئذ سـتباع في سـوق «الحميدية» المشهور.

نظر إلى الجدة العجوز، وقال:

- ماذا تقصدين بالسوق يا جدة؟

تبسمت الجدة هاجر وقالت:

- ماذا سأقصد؟! ستصبح خضرواتك أفضل الخضروات في السوق وسيسعى الجميع لشرائها.

اعتدل في جِلسته، ثم ضحك كثيرًا وملأت الابتسامة وجهه وهو سعيد بما قالته، ثم قال:

- ربما، لكن لو لم يكن هناك تل لاستطعنا شقّ طريق، فلو كان هناك طريق لحملنا السماد بالعربة.

- أنت على حق يا ولدي، فالسماد لا يحمل على الظهر.

نظرا إلى سفح الجبل، فإذا الدرب المحفوف بالأشجار خاوٍ هادئ.

شهق القفال وزفر، ثم تنهد وعيناه تنظران إلى الجبل الأملس؛ فكسرت الجدة هاجر الصمت قائلة:

- ليت لنا طريقًا تمرّ منه العربة، فكم وكم قلت ذلك لزوجي المرحوم.

أسند القفال يديه على ركبتيه، واغرورقت عيناه بالدموع، وقال:

- الحمد لله يا جدة، فلدينا قناة ستروي لنا الحديقة، وطريق سيمر به الحمار والبغل، ماذا نفعل فلندبِّر أمورنا هكذا؛ من يدري فربما نأتي بجرّاف لو أصبح لدينا مالٌ يومًا ما.

وَمَضَ بريق الأمل في عيني الجدة هاجر وقالت من أعماق قلبها:

- من يعلم؟ ربما!

انتظر الفرس الهادئ كثيرًا ثم هبّ من مكانه، ونبش الأرض ليَبرُك، وهزَّ ذيلَه لذباب على ظهره، وجفّ عرقه وازدادت حرارته؛ فقالت الجدة هاجر:

- لن أشغلك بالحديث، فالفرس بدأ يدبدب في الأرض، أَنْهِ عملك مبكرًا، مع السلامة.

ثم اعتدلت في جِلستها، وحملت المجراف على ظهرها، وتوجهت نحو الدرب، فصاح القفال من خلفها قائلاً:

- ماذا ستفعلين يا جدة هاجر؟

أطرقت برأسها من بين فروع الشجرة، وتركت المجراف على الأرض وقالت:

- لا شيء، سأعزق الأرض تحت أشجار الفاكهة لأفسح المجال قليلًا للخضروات.

انحنى مصطفى على الأرض وأخذ قبعته، وحاول أن يلبسها وهو يقترب من الجدة هاجر وقال:

- أريني المكان الذي ستزرعين به الخضروات، أنا أعزق لك مكانها بسرعة.

الجدة:

- هل يمكنك ذلك يا مصطفى؟

ابتسم القفال وقال:

- الأمر يسير، فلا تقلقي.

الجدة:

- شكرًا يا ولدي، هذا من لطفك وذوقك، سأريك المكان.

دخلا معًا بين أشجار الفاكهة ذات الفروع الدانية من الأرض، مرًّا بالشجيرات ووصلا مدخل الحديقة، وبدأت الجدة هاجر في وصف المكان الذي ستزرع فيه الخضروات.

مصطفى:

- لا تقلقي يا جدة، سنشتهر في سوق «الحميدية» هذا العام.

أمعنت الجدة هاجر النظر إلى القفال بعينين ملؤهما السعادة، ثم مسحت بطرفي عِصابتها عينيها المبتلتين بالدموع، وسألت بلسان صادق قائلة:

- هل سيتحدثون عنا بالفعل يا ولدي؟

ظل القفال يعمل حتى جُهمة الليل، فأنهى عمله وعزق مكان الخضروات للجدة أيضًا.

وفي الصباح استيقظ القفال قبل أذان الفجر، وخرج من المنزل، فضغط على ذراع المضخَّة، وشمَّر عن ساقيه فوق الحجر

الأملس، وأخذ يتوضأ، كان الجو منعشًا والمياه باردة، وإذا بباب الحديقة يُطرق بقوة، فمسح وجهه بالمنشفة وارتدى خفّيه بارتباك وصاح:

- من الطارق؟

تجمَّعت المياه في خفه فصار يحدث صوتًا، فأفرغها وقال:

- ها أنا قد جئت.

ثم فتح باب الحديقة، وحاول أن يخمن بعينيه المُغمضتين مَن القادم، وقال:

- من أنت؟

فرد صوت رقيق:

- أنا حفيد الجدة هاجر يا عمي مصطفى.

واستكمل الطفل حديثه قائلًا:

- ستذهب جدتي إلى السوق لشراء غِراس، وستشتري مثلها لك أيضًا إذا رغبت، فأرسلتني لأخبرك بذلك.

سُمع وقع أقدام مسرعة بالفناء، فها هي زوجة القفال قد أتت، وربطت رأسها بعصبتها، وخرجت من الباب قائلة:

- ما الذي جاء بالطفل، هل حدث شيء للجدة هاجر؟

مصطفى:

- لا يا عزيزتي، أرادت جدته أن تشتري بذور خضروات.

قالت زوجته:

- أجل، فهمت!

مصطفى:

- وأرسلت الطفل لتقول لنا: سأشتري لكم أيضًا إذا أردتم.

قالت الزوجة:

- لعلّ الأفضل أن تذهبا معًا.

سادَ الصمت برهة، وانتظر الطفل الرد.

مسح القفال رأس الطفل، ثم قال:

- هيا أخبر جدتك بأن العمَّ مصطفى سيأتي لتذهبا معًا.

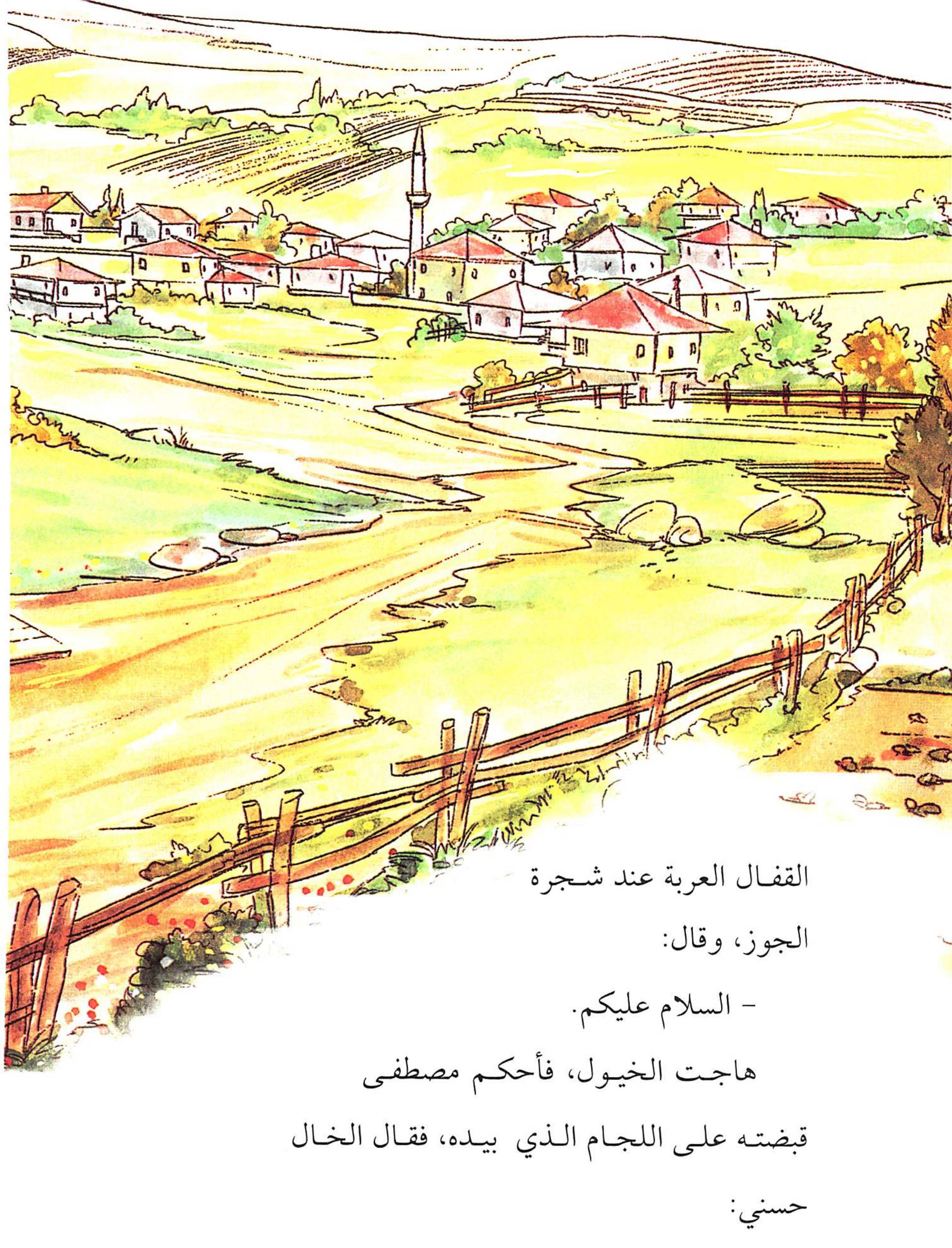
اختفى الطفل في الزقاق فورًا، فقالت الزوجة:

- فرشتُ سجادة الصلاة.

فدخل القفال دون أن يردّ، وأخذ ينظر إلى أطفاله النائمين، فصلَّى، ثم ربط الخيول بالعربة، وخرج إلى الزقاق.

أشرقت الشمس فكثرت الحركة في القرية، وترددت أصداء ضجيج قطيع ملأ الأزقة الضيقة فترة، ولما خرجت الحيوانات إلى السهل عادت القرية إلى سكونها السابق.

كانت الجدة هاجر تنتظر أمام الجامع، فذهبا معًا، وخرجا من القرية، ولما بلغا منتصف السهل قابلا الخال حسني، فأوقف



القفال العربة عند شجرة

الجوز، وقال:

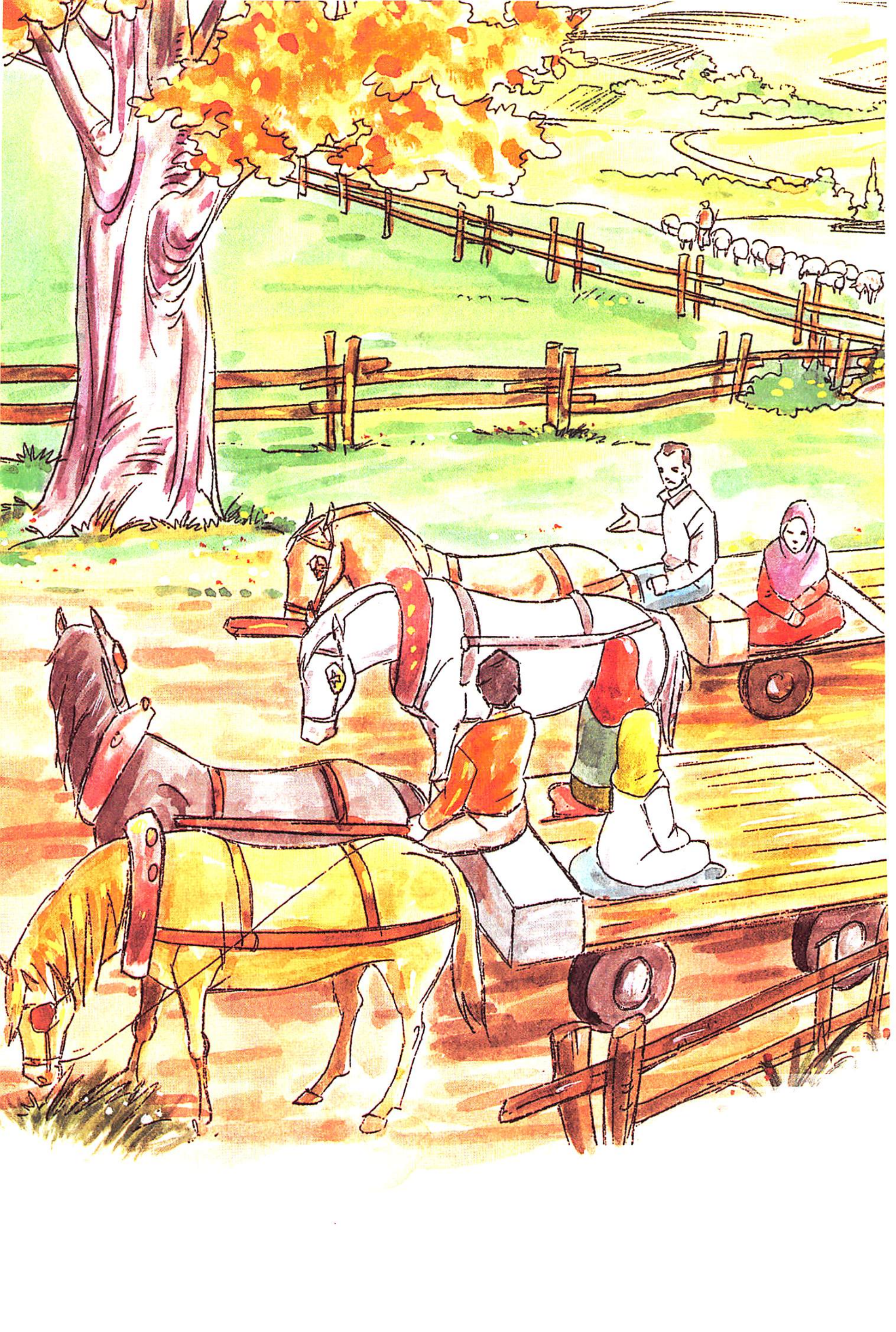
- السلام عليكم.

هاجت الخيول، فأحكم مصطفى

قبضته على اللجام الذي بيده، فقال الخال

حسني:

- وعليكم السلام، إلى أين تذهبان؟



- بارك الله فيك.

واصل طريقه، وأرخى القفال لجام الخيول وعندما صاح: هيا تحركي، ركضت الخيول بسرعة، وتطايرت سحابة من التراب من وراء العربة المسرعة، ثم اقتربت الجدة هاجر من القفال، وقالت:

- هذا الرجل يردم القناة ليحرث حديقته، أتمنى ألّا يفعل ذلك.

لم يسمع القفال قولها من ضوضاء العجلات، فمال برأسه إلى الخلف قليلًا، فقالت الجدة هاجر:

- نعم ينبغي ألا يردم القناة مرة أخرى!

فراود القفالَ قليلٌ من الشك ولكن لم يبدُ عليه، ثم قال:

- لن يردمها إن شاء الله.

وبينما كانت العربة متجهة نحو الطريق المُعبَّد، سمعا أصوات الرعاة يعزفون بالمزامير من بعيد.

بدأ الصيف، فاصفرّت الأعشاب، وقلّت مياه الجداول، واشتدّت حرارة الشمس، فكانت الحيوانات الضاوية تحت أشجار السرو تجترّ، وعندما اصفرت الشمس مساءً، أشار أحد الأطفال إلى سحابة غبار ثارت من طريق يقسم الواحة المنبسطة

- بارك الله فيك.

واصل طريقه، وأرخى القفال لجام الخيول وعندما صاح: هيا تحركي، ركضت الخيول بسرعة، وتطايرت سحابة من التراب من وراء العربة المسرعة، ثم اقتربت الجدة هاجر من القفال، وقالت:

- هذا الرجل يردم القناة ليحرث حديقته، أتمنى ألَّا يفعل ذلك.

لم يسمع القفال قولها من ضوضاء العجلات، فمال برأسه إلى الخلف قليلًا، فقالت الجدة هاجر:

- نعم ينبغي ألا يردم القناة مرة أخرى!

فراود القفالَ قليلٌ من الشك ولكن لم يبدُ عليه، ثم قال:

- لن يردمها إن شاء الله.

وبينما كانت العربة متجهة نحو الطريق المُعبَّد، سمعا أصوات الرعاة يعزفون بالمزامير من بعيد.

بدأ الصيف، فاصفرّت الأعشاب، وقلَّت مياه الجداول، واشتدّت حرارة الشمس، فكانت الحيوانات الضاوية تحت أشجار السرو تجترّ، وعندما اصفرت الشمس مساءً، أشار أحد الأطفال إلى سحابة غبار ثارت من طريق يقسم الواحة المنبسطة

اعتدلت الجدة هاجر قليلًا وقالت:

- إلى السوق، نذهب للتسوق ولشراء بذور خضروات.

القفال:

- وأنت إلى أين؟

الخال حسني:

- إلى الحديقة.

- حسناً، أعانك الله، هل من شيء تريده؟

الخال حسني:

- بارك الله فيك.

واصل طريقه، وأرخى القفال لجام الخيول وعندما صاح: هيا تحركي، ركضت الخيول بسرعة، وتطايرت سحابة من التراب من وراء العربة المسرعة، ثم اقتربت الجدة هاجر من القفال، وقالت:

- هذا الرجل يردم القناة ليحرث حديقته، أتمنى ألَّا يفعل ذلك.

لم يسمع القفال قولها من ضوضاء العجلات، فمال برأسه إلى الخلف قليلًا، فقالت الجدة هاجر:

- نعم ينبغي ألا يردم القناة مرة أخرى!

فراود القفالَ قليلٌ من الشك ولكن لم يبدُ عليه، ثم قال:

- لن يردمها إن شاء الله.

وبينما كانت العربة متجهة نحو الطريق المُعبَّد، سمعا أصوات الرعاة يعزفون بالمزامير من بعيد.

بدأ الصيف، فاصفرّت الأعشاب، وقلَّت مياه الجداول، واشتدّت حرارة الشمس، فكانت الحيوانات الضاوية تحت أشجار السرو تجترّ، وعندما اصفرت الشمس مساءً، أشار أحد الأطفال إلى سحابة غبار ثارت من طريق يقسم الواحة المنبسطة نصفين، وقال:

- انظر يا عثمان، هذا والدك عائد من السوق.

ركض حسن حفيد الجدة هاجر نحوَهم، وحاول الأطفال أن يتعرفوا على العربة القادمة من التلّ، فكان بعضهم يسأل حسنًا قائلًا:

- هل ستعطيني من خبز السميد؟

ثم بدؤوا يركضون صوب الطريق، وانتظروا العربة القادمة بشغف، وتوقف الفرس المنهك على بعد خطوة من الأطفال، فقال حسن:

- هل أحضرت خبز السميد يا جدتي؟

وصاح الآخرون من ورائه، فاعتدلت الجدة هاجر بصعوبة، وبحثت عن حقيبتها بالعربة، وقالت:

- عددكم كبير، سأقسمه بينكم، لكلٍّ منكم نصف.

كانت فرحة الأطفال لا توصف، وأخرج والد عثمان علبة ملبن من حقيبته، وناولها لابنه قائلًا:

- هيا، خذها، وتناولها مع أصدقائك عند ينبوع المياه.

سعِد الأطفال جدًّا، وقالوا:

- شكرًا لك يا عم مصطفى.

- شكراً لكِ يا جدة هاجر.

فسأل مصطفى القفال ابنَه قائلًا:

- أين والدتك؟

- ذهبت إلى الحديقة لتعد مشتل الخضروات، وأظن أنها عادت إلى المنزل منذ وقت طويل.

مسحت الجدة هاجر عرقها بمنديلها، وأخذت تلتقط أنفاسها ثم قالت للقفال:

- اشتد حرارة الجو يا مصطفى، فلنذهب إلى القرية، لقد تعبت كثيرًا.

أفسحَ الأطفال الطريق، وعزفت العجلات كأصوات

الموسيقى وهي تمر من أمامهم، وبينما الأطفال يركضون صوب التل، بدأت عربة الفرس تتجه نحو القرية.

وعندما اقتربوا من القرية قال القفال:

- فلنضع البذور في منزلنا يا جدة، وسنذهب بها غداً إلى الحديقة بالحمار.

فأومأت الجدة هاجر برأسها بالموافقة، ثم قالت:

- لنذهب العمل مبكِّرًا حتى لا نتأخر.

مصطفى:

- سننتهي قبل الظهيرة إن شاء الله.

وعندما اقتربا من بساتين القرية لم تصبر الجدة هاجر وقالت:

- قف يا ولدي!

فأخذ مصطفى بأطراف اللجام، وتوقفت الخيول التي تستعد لصعود المرتفع، ثم نظر إلى الجدة، فإذا بها قد نزلت من العربة، وأشارت بيدها إلى القفال ليذهب، وقالت:

- سأمُرّ بالحديقة قبل الغروب.

-كما تريدين يا جدّة.

ذهبت الجدة هاجر لرؤية مشتل الخضروات ولم تُبالِ بالتعب.

سارت الخيول رويدًا رويدًا نحو زقاق القرية، ثم وقفت أمام الباب، ونزل القفال ليفتح باب الحديقة، وخطت الخيول خطواتها الأخيرة بسرعة من التعب، فجرى القفال لإيقافها.

عمّ الهدوء الفناء بعدما كان مليئًا بالحركة، وجفّ عرق الخيول، وكانت زوجة مصطفى وابنته قد عادتا من الحديقة، تستعدان للمساء، فقامتا بتنزيل الأشياء، وقام مصطفى بتنسيق الغِراس تحت ظل الشجرة؛ فلما انتهى مِن عملِهِ، أسند ظهره إلى العريشة، وأغمض عينيه فإذا بضوضاء في الزقاق، إنه صوت الجدة هاجر وهي تقول:

- أفٍ، أف!

فنهض مصطفى القفال، ليفهم ما حدث، وخرجت زوجته أيضًا، فقال مصطفى:

- ماذا حدث يا جدة؟

- ماذا تتوقع من حسني يا مصطفى؟! لقد ردم القناة.

كان الخال حسني قد قرر أن يبني حائطًا لحراسة الحديقة من الحيوانات.

وضع القفال ذراعيه في خصره، وقطَّب وجهه قائلًا:

- مرة أخرى؟ يا لَه مِن شخص مزعج!

الجدة هاجر:

- لقد أنهينا العمل في مشتل الخضروات، فمن أين سنحضر المياه إلى الحديقة؟

لـم تسـتطع زوجـة القفـال أن تسـتوعب مـا يحـدث، فنظرت إليهما باندهاش وقالت:

- ماذا حدث؟

الجدة هاجر:

- مـاذا تنتظريـن يـا ابنتـي؟! لقـد ردم حسـني القنـاة الواصلـة للحديقة، وقرَّر أن يبني حائطًا.

سأل القفال الجدة هاجر:

- هل تحدثتِ معه؟

الجدة هاجر:

- لم أجده، لم يكن بالمنزل.

- لقد أحضرنا الغِراس، فماذا سنفعل؟

أعدّت زوجة القفال اللبن الرائب وقدّمته ثم قالت:

- اذهبا إلى العمدة وتحدثا معه، عسى أن يحل المشكلة.

الجدة هاجر:

- لا يا ابنتي، إنني أعرفه، إنه رجل عنيد، متى قال شيئًا، فلا أحد يستطيع أن يصرفه عنه.

القفال:

- لن نستطيع أن نفعل أي شيء، ولو فكرنا في جلب المياه من مكان آخر فلن نجد طريقًا يمر منه الماء، لا بد أن تمرَّ من حقله.

وبينما هم يفكرون في هذا المأزق، إذا بضوضاء تسمع من بعيد، كان أحدهم يروي الحديقة بمضخة، فقال القفال:

- وجدتها، لو لم نستطع أن نجلب المياه من القناة، فسنسقي بالمضخة.

الجدة هاجر:

- بالمضخة؟ لكن ليس لدينا مضخة.

- سأتحدث مع العمدة هذا المساء، ولو لم يتمّ هذا الأمر، فلنبحث عن مضخة لنستعيرها.

ثم نهض وقال لزوجته:

- أعِدِّي مائدة الطعام.

عاد إلى الجدة هاجر وقال:

- لا تقلقي يا جدة، سنزرع الخضروات غدًا في الحقل، وإذا نصبنا المضخة فسيغدو كلُّ شيء على ما يرام، وسنسقي الحديقة بالخرطوم.

شعرت الجدة هاجر بطمأنينة، وعندما حان أذان العشاء قالت:

- عليّ أن أذهب الآن.

فقالت زوجته:

- إنك لم تطبخي اليوم يا جدة، تفضلي معنا لنتناول العَشاء معًا.

ثم أمسك القفال الجدة العجوز من ذراعها وأجلسها وقال:

- إن ابنتك على حق، إنك كنت خارج المنزل طوال اليوم، وليس لديك طعام.

كانت الجدة هاجر تريد أن تنهض من مكانها، فقال القفال:

- لن تذهبي إلى أيّ مكان!

فقالت الجدة هاجر:

- توقف يا بني، سأتوضأ؛ أم إنك لا تأذن لي بذلك أيضًا؟

فضحكوا جميعًا...

أطلّ البدر على القرية وهو يومض وميضًا خافتًا، وغدا



حطب القدر المشتعل منذ العصر رمادًا، وعندما اختفى الدخان والهِباب، تحلّقوا جميعا حول مائدة الطعام.

وبعد الطعام انطلقا إلى منزل حسني، واصطحبا العمدة معهما، خرجت زوجته الخالة مَلَك إلى الباب وفي يدها قنديل، فتعرفت على العمدة، وحاولت التعرف على الشخصين الواقفين بالخلف، ثم قالت:

- تفضل يا عمدة.

- هل حسني بالمنزل؟

سُمِع صوت سعال من الداخل، ثم ظهر حسني عند الباب وقال:

- تفضل يا عمدة، ادخل.

- لا لن ندخل.

فبدأ يتحدث بصوت مرتفع:

- لقد فهمت سبب مجيئك، ولكن لماذا أحضرتهما؟ لا ترهقوا أنفسكم، فأنا لن أسمح بمرور القناة من حقلي.

فاتجه القفال نحوه، ولكن الجدة هاجر حالت دون وصوله إليه، وقالت:

- توقف يا ولدي، لا تستفزه.

القفال:

- ما تفعله خطأ، أنت تتعبنا كل عام، من أين سنأتي بالماء، ليس لدينا سبيل آخر؟!

لوّح حسني بذراعه كأنه يقول: «إليك عني»، ثم قال:

- عندي بئر خاصّ بي، أما أنتم فاسقوا كيفما شئتم.

العمدة:

- هل هذا آخر كلامك؟

- نعم.

- إذاً ليس لدينا ما نفعله، فلنذهب.

ولما هموا بالرجوع، اقتربت الجدة هاجر من حسني، وقالت وعيناها تستشيطان غضبًا:

- ستندم أشدَّ الندم.

ثم لحقت بهما، وعادوا بخفَّي حنين، وضوء القمر يملأ الأزقة، فقال القفال:

- سأذهب إلى كاظم، لأستعير منه المضخة.

العمدة:

- حسنًا، وإذا لم يصل الخرطوم، فخذ خرطومي.

الجدة هاجر:

- ولكن لا يمكن أن نستعير المضخة طوال الصيف.

فأومأ القفال برأسه قائلًا:

- بالطبع لن نفعل ذلك يا جدة، «بخل الجار يدفعك لشراء ما تحتاج»، فلنغرس الشتلات ثم نحاول أن نشتري مضخة.

الجدة هاجر:

- لدي بعض النقود التي ادّخرتها، سأعطيك إياها.

فانفرجت أسارير القفال في حياء، وقال بصوت أجش:

- شكرًا لك.

ثم انصرفا.

مرّت ثلاثة أسابيع، ثم اشترى القفال مضخة ماء جديدة من البلدة، وقاموا بسقي الخضروات بها، وتضاعف إنتاج الخضروات، كان مصطفى القفال يجمع الخضروات من الحديقة مع أبنائه وجاءت الجدة هاجر لمساعدتهم.

وصل مصطفى القفال إلى آخر الحقل، وبينما كان سيحمل الغرارة على ظهره، توقف ثم ألقى نظرة على حقل الخال حسني، فإذا بقسم من الخضروات شديد الخضرة والآخر بدأ يذبل من الجفاف، فامتعض القفال قائلًا:

- «يا الله! لماذا لم يسِق هذا القسم؟ إذا تأخر فستموت هذه الخضروات، ثم أخذ الغرارة على ظهره، ولما وصل عند شجرة

الكمثرى قال للجدة هاجر:

- لقد بدأت خضروات حسني تذبل.

عندما سمعت الجدة هاجر هذا الاسم لم تسعد كثيرًا وقطّبت جبينها قليلًا وقالت:

- لقد تعطلت مضخته، أظنه يشعر بالخزي فيخجل منّا، وستفسد خضرواته.

فنظر إلى وجهها وقال:

- أنتِ على صواب يا جدة، لكننا جيران، والخضروات ستذبل، ومن يزرع خيرًا يحصد خيرًا.

- أخرِجْ ما في جَعبتك يا قفّال.

فضحك مصطفى وقال:

- إن لم يكن لديك مانع، فلنسقِ له بمضختنا.

ثم انتظر رد فعل الجدّة.

شهقت الجدة هاجر وزفرت، ثم أطرقت قائلة:

- يقول أجدادنا: «افعل الخير وارمِه في البحر، فإن لم تعلم به الأسماك، فالخالق أعلم»؛ إن كنت تريد هذا فأنا أوافق.

شعر القفال بالارتياح، فأرسل عثمان فورًا ليخبر الخال حسني، فركض عثمان واختفى بين أشجار الفاكهة، فلم يجد

الخال حسني بالمنزل، فجاءت زوجته لتسقي الخضروات.

شغّل القفال المضخة وعدّل اتجاه المياه نحو حقل الخال حسني، فسعدت الخالة مَلَك؛ فالخضروات التي طالما تعبوا عليها لن تموت.

وما إن رأت سيقان الفلفل الماءَ حتى اخضرَّ لونها، ونضِرَت الخضروات التي بدأت تذبل، وصاحت الخالة ملك من بعيد قائلة:

- شكرًا لكِ يا جدة هاجر، بارك الله فيك.

وفي الأسبوع التالي ذهبوا إلى السوق مشيًا على الأقدام، وكان الخال حسني معهما، وخرجوا كلهم من القرية متجهين نحو السوق، وهكذا نجد الجدة والقفال يقتديان برسول الله ﷺ الذي كان يحسن إلى مَن أساء إليه.

ملاحظاتي حول الكتاب

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

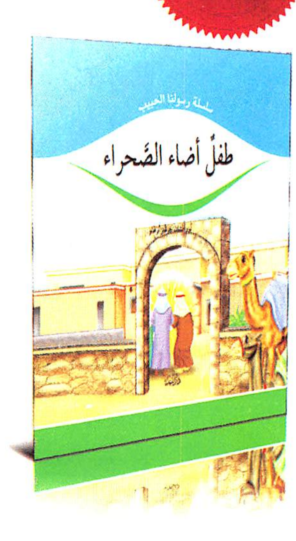
....

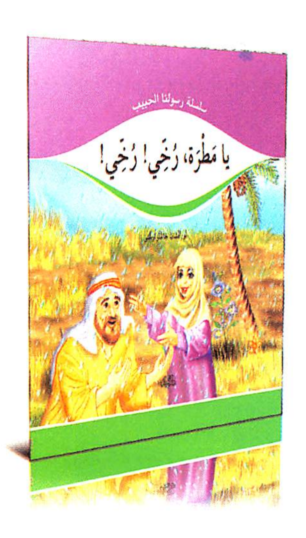
ملاحظاتي حول الكتاب

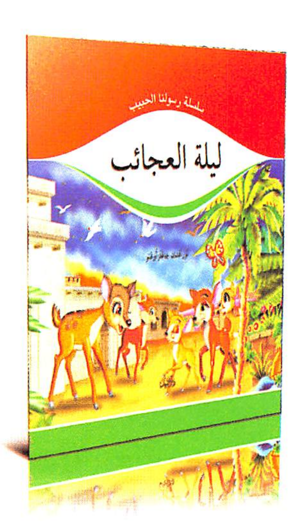
سلسلة رسولنا الحبيب 1-6

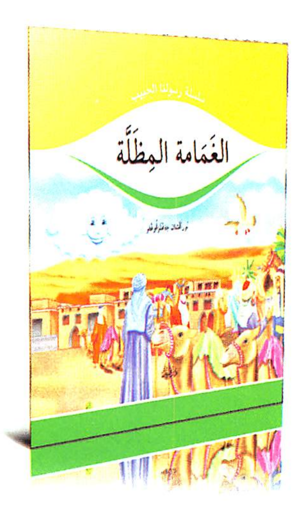
نُورأَفْشان جَاغْلَرْأوغْلو

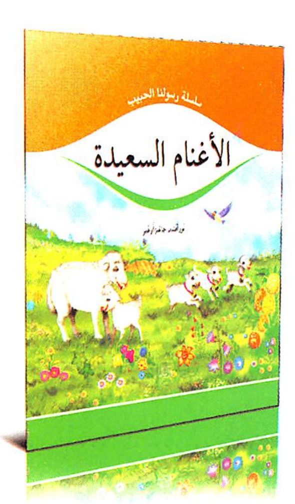
صدر حديثا...

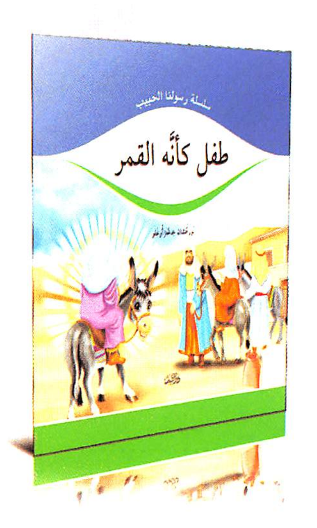












22x22	سم
16	صفحة



مركز التوزيع فرع القاهرة : ٧ ش البرامكة، الحي السابع، مدينة نصر – القاهرة / مصر

تليفون وفاكس : ٢٦١٣٤٤٠٢ الهاتف الجوال : ٠١٠٠٠٠٧٨٠٨٤١

www.daralnile.com